إهداء

إلى الطالب العادي ..

إلى كل الزملاء الذين تواجدوا طلابًا في الجامعات المصرية (وفي المدارس الثانوية .. بل والإعدادية) على اتساع الوطن في الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٧ كلهم بلا استثناء .. فهم مفجروا الحركة الحقيقيين ، وهم مصابيحها الهادية ، وهم أصحاب برنامجها ، وهم الذين ضغطوا ليحققوا لمصر آمرين على أكبر جانب من الأهمية والعظمة ، عبور أكتوبر الخالد ، وقد كان إنجاز صيحاتهم المؤثرة التي انطلقت من الجامعة ، وإنجاز دمائهم أيضًا التي بُذلت في سبيل الوطن بين صفوف المجندين وضباط الاحتياط ، الذي حققوا نقلة كيفية متقدمة للقوات المسلحة ، مكنتها من الانتصار ، وقطع يد إسرائيل الطويلة ، وتدمير نظرية أمنها ، التي لن تقوم لها قائمة .

أما إنجازهم الثاني العظيم فكان فتح باب الديمقراطية ، صحيح أن الآلاعيب التي لا تنتهي تضغط باستمرار لكي يظل الباب مواربًا ، لكن أحدًا لن يستطيع إقفاله بعد أن فتحوه ، بل إنهم - فاتحوه - هم الذين سيوسعون فرجته التي ستدخل منها آمال هذا الشعب العظيم .

إليهم جميعًا .. تعبيرًا عن إنجازهم الضخم .. هذا الكتاب (*) .

د. هشام السلاموني .

(*) الذي ينظر إلى تكوين التاريخ النضالي لقادة كفاية ، وما تولد عنها من حركات وجماعات سيرى تحقق هذه النبوءة التي سبقت ظهور كفاية بأربعة أو خمسة أعوام.

obeikan.com

مقدمة الطبعة الثانية

مياه كثيرة مرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ .

ومياه كثيرة مرت من تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ الطبعات الأوليَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

لعل أهم تلك المياه هي أن صار الجيلُ الذي واجه عبد الناصر والسادات الجيلَ ، ويواجه مبارك الأب والابن .

والغريب أن فحوى المواجهة واحد . الديمقراطية ، والمشاركة الشعبية السياسية في صنع القرار ، وفي الرقابة الفعلية والفعالة على تنفيذه .

لقد كانت كفاية هي الاستمرارية التي نجح هذا الجيل ـ جيل الحركة الطلابية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧ ـ في أن يتحرك بها نحو هدفه الديمقراطي ، أمل هذه الأمة .

وأظن أن من حقي أن أقول ـ بل أقرر ـ أن كان لهذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ فضل ـ كبر أو صغر ـ فيما تم .

لقد غير هذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ اللغة التي كان يتكلم بها المثقفون ، في لقاءاتهم ، وفي كتاباتهم ، غيرها من العداء ، وانتصار كل فريق لنفسه ، ظالما أو

مظلوما ، إلى لغة مستعدة للتفاهم مع الآخر ، أو على الأقل الاستماع إلى ما يقوله بتمعن ، أو ببعضه .

كانت الحياة السياسية في مصر ١٩٧٧ ـ ١٩٩٧ قد أفسدت الجيل سياسياً ، بأحزابها العلنية ، والسرية (والسرية أكثر) ، وأصبح الشيوعيون في عداء مستحكم مع الناصريين ، والناصريون في عداء مستحكم مع الإخوان ، والإخوان في عداء مستحكم مع الديمقراطية ، ولم يكن من الممكن لتيار من التيارات أن يسمح لنفسه بأن يبقي أذنيه مفتوحتين إذا ما تكلم التيار الآخر .

ولعلي ألجأ إلى واقعة ـ شاركني فيها كالعادة الصديق الأخ د. عاصم الفولي ـ لتشرح للقارئ الكريم الوضع الذي كان .

ذهبنا ـ عاصم الفولي وأنا ـ إلى المرحوم عادل حسين لنتكلم عن عمل توافقي حقيقي ندعو له كل التيارات في الساحة ، يجابه السلطة ، ببرنامج ديمقراطي ، ويصر شعبياً على تحققه (عادل حسين بصفته كان مناضلاً شيوعياً صلباً ، ثم تحول إلى مناضل إسلاموي صلب ، وأنا بصفتي شيوعيا، وعاصم بصفته متعاطفًا مع الإخوان والاتجاهات الإسلاموية) ، والحقيقة أن عادل حسين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ استمع لي بشكل كان مزيجا من الاهتمام الحقيقي والأدب الجم ، مما شجعني على أن أُفرِّغ أمامه كل ما كنت أفكر فيه ، بعدها فوجئت به يقول لي :

ـ ما تسيبك من كل اللي بتقوله ده ، وتيجي معانا .

غيِّر هذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ من هذه اللغة .

غيرها بشكل فني !!.

التزم هذا الكتاب بالصدق (بأقصى ما استطعت) ، وإثارة الحنين بإعادة تكوين البانوراما ، التي كانت موجودة في السنوات ، التي تكلم الكتاب عنها ، فعاد قارئوه

من صناع الأحداث إلى الفترة التي عملوا فيها معا ، واستطاعوا فيها معا (عمال وطلبة ، ومثقفين ، ونقابات) إجبار السادات ، صاحب المفرمة الشهيرة ، على إحناء رأسه للمعارضة ، والاضطرار إلى دخول الحرب .

وأذكر ـ بتدبير من المهندس عاصم الفولي ـ أن تلقيت زيارة كريمة من الأخ الصديق المهندس أبي العلا ماضي ، وهو من أصحاب الاتجاه الإسلاموي المنفتح ، والمؤمن بالديمقراطية ، وكان اللقاء خصباً ، نقلت كل ما قيل وما حدث فيه لأخي أحمد بهاء الدين شعبان ، وعن طريقه للأستاذ أمين اسكندر (من الناصريين) ، وإلى الأخ فريد زهران.

وفي دعوة كريمة من حزب الوسط على إفطار رمضاني ، تكلم المناضل الشيوعي الكبير ميلاد حنا عن القوى الوطنية ، وأن ليس بينها ما يجعلها قادرة على العمل التوافقي المشترك ، برغم أن ما يحدث لمجتمعنا ، وفي مجتمعنا يجبرها إرغاماً على قبول الفكرة ، لصالح مستقبل هذه الأمة ، طلبت الكلمة ، وقلت ما ركزت عليه في مقالاتي عن الجيل ، وقلت :

ـ هل يسمح لنا مناضلونا الكبار ، في الأحزاب السرية والعلنية ، والنقابات ، ونحن أصحاب خبرة وتجربة في العمل السياسي التوافقي بين تيارات مختلفة ، أثناء الحركة الطلابية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧ أن نبدأ في وضع الخطوط العريضة لتوافق حول الديمقراطية ، وتسيرون معنا فيه ، إذا ما وافقتم عليه.

وقال الأستاذ ميلاد ضاحكاً:

ـ يا خويا إيدي على كتفكم ، يا ريت .

بعدها تكونت لجنة من وحيد عبد المجيد ، وأحمد بهاء الدين شعبان ، وأمين اسكندر ، وفريد زهران ، لتتولى استكتاب العديد من الشخصيات الهامة في المجتمع

عن النموذج الديمقراطي التوافقي المصري ، وأصدرت بعد لأي كتاباً (مصر والنموذج الديمقراطي ، سلسلة حوارات المستقبل ، المحروسة لنشر الخدمات الصحفية والمعلومات ، يناير ١٩٩٩ . القاهرة) أشرف على تحريره أبو العلا ماضي ، وأمين اسكندر ، فريد زهران ، وحيد عبد المجيد .

والحقيقة أن الكِتاب « مصر والنموذج الديمقراطي » حمل بعض مواصفات وأخطاء ، وخطايا الحركة السياسية (وأفظعها أن ندخل إلى العمل التوافقي من باب تجنيد الآخرين لأفكارنا نحن ، بلهجة تعليمية متعالية ، وليس البحث عن أرضية مشتركة يعمل عليها المختلفون لتحقيق هدف أو أهداف نضالية ، تمهد الطريق لحركة سياسية ديمقراطية ، يستفيد منها الجميع ، وتقضي على احتكار السلطة في بلدنا (وبلداننا العربية) .

لكن الأهم أن الأطراف المتباعدة التقوا ، والعمل المشترك أظهر نفسه كضرورة ، وأن روحًا جديدة سرت في جسد الحياة السياسية المصرية ، ووُلدت كفاية التوافقية ، ووَلدت كفاية التوافقية حركات احتجاجية مطالبة بالديمقراطية عديدة .

هكذا كنا ، وهكذا أصبحنا .

مياه أخرى جرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأولَيَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ ، كانت هي الأهم عندي .

كانت هذه المياه أن الشباب الجديد قرأ الفترة التي عشناها (ولم يعشها هو ، أو عاشها غير واع لصغر سنه) في نهاية الستينيات ، ولا أنسى الناقدة المسرحية الكبيرة قدراً مايسة زكي ، وهي تتصل بي تليفونيا :

ـ إيه ده يا هشام .. إيه اللي انت عامله ده ؟! ..

ـ خير عملت إيه ؟!..

ـ الجيل الذي واجه ....

ـ ماله ؟! ..

ـ انت كتبت البلد يا هشام ، موش كتبت كتاب !! .

ـ قصدك كتبت البلد في نهاية الستينيات ..

ـ وهي اتغيرت ؟! ..

ـ انت رأيك إيه ؟! ..

ـ رأيي إن التغير في الدرجة ، لكن المصيبة هي المصيبة .....

وأجيال أصغر قرأوا البلد ..

ولا يستطيع أحد أن يتصور مدى فرحتي حين يكلمني أحد من الأجيال الصغيرة ليقول لي إنه عاش في القراءة ما عشناه .. وأنه فهم ما فهمناه ..

مياه أخرى جرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأوليَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

مياه أنصفت رجلاً عظيما ، هو في رحاب الله منذ سنوات ونحن اللاحقون .

الرجل هو اللواء الحناوي ـ قائد سلاح الطيران في فترة مظاهرات ١٩٦٨ ـ الذي قال لي إن عبد الناصر أمره ـ عن طريق الفريق فوزي ـ بضرب الطلبة برشاشات الطائرات المعدلة في طريق جمال عبد الناصر !! (كورنيش البحر في الإسكندرية) ، في نوفمبر ١٩٦٨ (الكتاب يتضمن فصلين وملاحق عن هذه القضية) ، ولما نشرت ما قاله قامت الدنيا ، قامت غير مصدقة ، ولكنني أسكت الدهشة ، ولا أستطيع أن أقرر أنني أقنعت الجميع .

ذات ليلة من العام ١٩٩٩ تلقيت مكالمة تليفونية مهمة ..

ـ دكتور هشام السلاموني ؟ ..

ـ أيوه يا فندم

ـ أنا الدكتور حماده حسني ، أستاذ مساعد بقسم التاريخ الحديث جامعة عين شمس ..

ـ أهلاً وسهلاً ..

ـ حضرتك كتبت عن إن عبد الناصر أمر بضرب الطلبة بالطيران ..

ـ أيوه ..

ـ أنا معايا ليك هدية ، وأخذت نمرة تليفونك من الأستاذ عبد الغفار شكر (المناضل والمعلم الكبير بحزب التجمع) عشان أوصلهالك ..

ـ أنا عاجز عن الشكر ..

ـ موش لما تشوف حضرتك الهدية الأول ..

وشرفني الدكتور حمادة حسني بالحضور ، وكدت أطير من الفرح ، وهو يقدم لي هديته الجميلة ، وقائع الجلستين التاسعة والعاشرة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، وفيهما اعتراف كامل من جمال عبد الناصر بأنه أمر الطيران بضرب الطلبة .

رحم الله اللواء الحناوي ، لقد فرحت له وما زلت ..

مياه أخرى جرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأوليّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

كانت تلك المياه مقابلة لم أكن أتصور أن ستتم ، وقد بدأت هي الأخرى بمكالمة تليفونية ، في ليلة شتوية من العام ٢٠٠١ :

ـ آلو .. أنا المهندس عاطف الشاطر ..

ـ معقوله !! ..

ـ أيوه معقوله ..

وعاطف الشاطر هو من أسميته في هذا الكتاب بالبطل التراجيدي لأحداث مظاهرات الإسكندرية في نوفمبر ١٩٦٨ ، وكانت هناك رواية عنه ، أصبحت شبه رسمية ، خرجت من السجن ، حيث جمع الطلبة من كافة الكليات ، والجامعات ، وكنت متشككاً في هذه الرواية (ستطالع الرواية وتشككي في الكتاب بين يديك) ، ولقد كتبت تشككي في الرواية ، وقلت إنه (عاطف الشاطر) أكثر من دفع ثمنا من الطلبة إذ رفت من الكلية ـ مع آخرين ـ وتم تجنيده في برنيس على الحدود بين مصر والسودان جنديا ، على أساس أن لا مؤهل عال معه (بعد فصله من الكلية) ، وهو بعد أن أنهى تجنيده ، هاجر (تقريبا) إلى المغرب ، ومن يومها وهو هناك يعمل في تخصصه :

ـ أنا لما قريت اللي كتبته في روز اليوسف ، قلت إنك إنسان محترم ، واتصلت بالمجلة ، أثناء نشر المقالات ، وطلبت رقم تليفونك ، وللأسف لم يعطوني الرقم ، ومرت أربع سنين على ما قدرت أجيب الرقم .

ـ موش لازم تمر أربع ساعات قبل ما نلتقي .

ـ إديني العنوان من فضلك ..

أسرعت بالاتصال بصديقي الدكتور نادر الطويل (دكتوراه من ألمانيا في تسليح

الخرسانة) ، وهو خريج كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وقد عاصر عاطف الشاطر في الكلية ، وطلبت منه أن يحضر اللقاء بيني وبين عاطف الشاطر ، ليرى إذا ما كان الكلام كله حقيقة ، أم أن فيه ما يريب ، وجاء عاطف الشاطر مصطحبا معه المهندس نادر الشناوي ، رئيس اتحاد الطلبة السابق على عاطف الشاطر ليكون شاهداً على ما يقول ، وقلت ضاحكاً ، والتعارف يتم بيننا جميعاً :

ـ بصرة ..

وبانت الدهشة في وجه عاطف الشاطر ، قلت :

ـ انت جبت نادر ، وأنا جبت نادر ، يبقوا بصره ..

واعتذر عاطف الشاطر ـ دون حاجة لاعتذار بأن البقاء خارج مصر طويلاً أنساه حلاوة القفشات المصرية .

يومها سجل لي عاطف الشاطر ، ونادر الشناوي خمس ساعات ، المهم عنها ، أنها أكدت أنني كان يجب أن أتشكك (متأسفاً) في رواية رفيقي الشيوعي للأحداث ، أما ما قاله لي عاطف الشاطر ، فكنت أزمع أن أضمه إلى هذه الطبعة ، ولكنني فضلت أن أخرجه في كتاب وحده ، ربنا يعطيني عمرا ليكون بين يديك في العام ٢٠١١ .

مياه أخرى ... ، ولكنني سأكتفي بما قلت ، وسأتقدم بالشكر للأستاذ فتحي هاشم ، ناشر الكتاب ، الذي قرر أن يتيح لأجيال أصغر أن يقرأوه .

د : هشام السلاموني

المهندسين ٢٠١٠

قبل أن تقرأ ..
محاولة للفهم ..

obeikan.com

obeikan.com

للكتاب قصة ..

أو لنكن أكثر دقة ولنقل أن للمقالات التي نشرتها «روز اليوسف» في الفترة من ١٧ فبراير إلى ١٢ مايو ١٩٩٧، (والتي أجمعها في هذا الكتاب بإضافات ضرورية..) لنكن أكثر دقة .. ولنقل .. إنه كانت لتلك المقالات قصة .

ولعل من المفيد قبل أن أروي تلك القصة ، أن أعترف ـ من أولها ـ بأن بداية قصة تلك المقالات ، وهذا الكتاب ، قد تأخرت عشرين سنة كاملة!

عشرون سنة مضت بين البداية الحقيقية (الطبيعية) لتلك المقالات ، وبين البداية الفعلية !! (وضعت علامات التعجب على أساس أننا نهتم بالزمن!!) .

وباعترافي هذا .. تكون لدينا بداية فعلية .. وبداية حقيقية.. وقصة .. فلنبدأ .

***

البداية الفعلية ، جاءت ـ مباشرة ـ بعد صدور العدد ٣٥٨٢ من «روزاليوسف» في فبراير ١٩٩٧ .

في ذلك العدد قرأت مقالين ممتازين .

كان أولهما لعادل حمودة [الصحفي القدير «ابن جيلنا» ، الذي جعل روز اليوسف واقعًا مقروءًا ومؤثرًا في كل بيت مصري ، وخاض بها وفيها صراعًا ناجحًا ضد التابوهات (الممنوعات.. المحرمات) ، التي لم يكن يُسمح لأحد بالاقتراب منها ، وهي السلطة المطلقة (التي تتجمل تجملاً مفضوحًا) ، وقداسة رجال الدين ، التي يحرص عليها البعض، ربما أكثر من حرصهم على مصالح الناس . بل وعلى

الدين نفسه (القداسة للدين .. وليس للدين رجال.. الدين لكل الرجال .. لكل البشر) .. وثالث الممنوعات .. الأسس الاقتصادية والاجتماعية وانسياسية للممارسات الجنسية (سوية كانت أو غير سوية) .. ولقد أصاب عادل حمودة كثيرًا . وكانت المحصلة في صالحه .. وصالحنا بدون شك] .

ثاني المقالات ، كان عنوانه «الانفجار .. عملية احتلال ميدان التحرير» كتبه عبد الله كمال (صحفي شاب، يملأ قلمه بماء النار ، ويحترف الكتابة به عن المحظورات بحروف مشتعلة ، كاوية ، تحفر في الجسد العربي .. الذي يظنه الواهمون قد آثر الدعة..) .

قرأت المقالين .. ولنبدأ بثانيهما .

المقال الثاني : «عملية احتلال ميدان التحرير» ، كان تلخيصًا وافيًا ، وواقعيًا لحدث مرت عليه خمس وعشرون سنة ، هو حركة الطلبة في يناير ١٩٧٢ ، تلك الحركة (العظيمة) التي بدأت بمجلات حائط ، أعقبتها مؤتمرات في كل الكليات ـ كانت الأكثر سخونة بينها مؤتمرات كلية الهندسة جامعة القاهرة ، فلا عجب أن تحول واحد منها (من مؤتمرات كلية الهندسة) إلى مؤتمر عام لطلاب جامعة القاهرة ـ انتقل بعد ذلك إلى قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة (كانت في عين شمس نفس الخطوات ، وكان لجامعة عين شمس نفس التأثير ، لكن اعتصامًا لم يجر في عين شمس إلا في ١٩٧٣) ، وقد قرر المؤتمر العام الاعتصام لحين جلاء الحقائق المتعلقة بصراعنا الأمني مع إسرائيل ، مطالبًا (الاعتصام) بالديمقراطية ، وبحق مشاركة الجماهير في تسيير أمورها ، حتى تستطيع الجماهير أن تكون رقيبة على تحقيق أمانيها ، وحتى تضمن ألا تكرر السلطة نوعية المآسي التي وصلت إلى ذروة حقيقتها في نكسة يونيو ١٩٦٧ ، بعدها تدخلت الحكومة .. واقتحمت الجامعة فجرًا (عودتنا

السلطة العسكرية في مصر الانقضاض في الفجر ، والانقضاض على الفجر!) وقبضت على المعتصمين ، لتفاجأ ـ السلطة ـ والشمس في كبد السماء ـ في ظهيرة نفس اليوم ـ بأن عشرين ألفًا من طلاب جامعة القاهرة ، وأعدادًا هائلة من طلاب جامعة عين شمس ، يحتشدون في ميدان التحرير ، ويحولونه لمكان اعتصام جديد في حضن المصرية الصاخب ، ويكونون لجنتهم الطلابية العليا الثانية ، ويرددون الصوت الذي ظنت الحكومة أنها قد أخرسته في الفجر (في الجامعتين) ، ويؤرقون انفرادها واستفرادها بالأمور كما لم يؤرق من قبل .

كان المقال تلخيصًا وافيًا للحدث .. تساءل كاتبه ـ في آخره ـ عن هؤلاء الذين فجرّوا الحدث الكبير .. عن مصيرهم .. أين هم الآن؟ .. وماذا يفعلون؟! .. قائلاً:

«هؤلاء الطلاب الذين فجروا تلك الأحداث ، تذكروا الآن بعد ربع قرن ما حدث (كان يقصد عزم جيل السبعينيات وقتها على الاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حركتهم العظيمة ، والذي تم بعدها بأسبوعين) .

واستطرد ...

«ونحن أيضًا نتذكر هذا معهم الآن ، ونتساءل ، أين عشرات منهم بعد كل هذه السنوات ، وكيف صاروا؟!! .. أين حسام الدين عبد الله ، وهشام السلاموني ، وصلاح يوسف ، وهاني شكر الله ، ونبيل عتريس ، وشوقي عقل ، وعاصم الفولي ، وهاني عنان ، وأحمد بهاء الدين شعبان ، وأحمد عبد الله ، وفريد زهران [1] ، وعشرات غيرهم » .

كان من الواضح أن كاتب المقال يبحث عن مصائر هؤلاء الذين تصورهم ـ مشكورًا ـ الذين فجروا تلك الأحداث (الجيل كله فجرها ، وكانت الحركة العظيمة

(١) فريد ظهران كان من جيل الحركة الثالث ٧٥/ ٧٧ ، ولا أظنه كان في التحرير في ١٩٧٢ .

حركته ، وكان بطلها ، وليس في هذا افتعال للتواضع .. بل وضع لحقيقة في نصابها ، وكان جهد المقالات التي ستقرأها ينصبّ في إرساء قواعد هذه الحقيقة) وكانوا وراء تلك الضربة (كانت بالحق ضربة) التي قضت على أسطورة الدولة المنفردة المستفردة بكل الأمور ، وفتحت الباب للديمقراطية (الباب الذي لم يستطع أحد إغلاقه بعدها ، وإن نجحوا في جعل الجيل لا يبالي بها ، بكثرة ما افتعلوه من ألاعيب محبطة لا ينقطع لها مدد!! ، (من عباقرة التحايل ، وترزية القوانين)، وردّاحي «فرش الملاءة» من الصحفيين وسائر الإعلاميين) وأرغمت السادات.. وكان ذلك هو إنجازها الآني العظيم الضخم ـ على ألا يتهرب من معركة مع إسرائيل ، لم يكن يريد خوض غمارها (وإن فتر بعد ذلك في أن يخوضها محدودة[1]. وبقي على فكرته برغم الأداء بالغ العظمة للقوات المسلحة المصرية في حرب أكتوبر المجيدة ـ بجناحيها النظامي والاحتياط!! مضيعًا الفرصة التي كانت متاحة أو محسوبة فعليًا ، قبل أن يصل أي مدد عسكري أمريكي لإسرائيل.. كانت المدة المحسوبة من ٨-١١ يومًا) .

كان ذلك هو المقال الثاني ، وكان لكاتبه «عبد الله كمال» فضل التذكر والتذكير وأيضًا ، فضله في أن سبغ علينا ما لا نستحقه .

أما المقال الأول ـ التحليلي ـ الذي كتبه عادل حمودة ، في نفس العدد فكان بعنوان «عبادة الشيطان ونداءات المجتمع» (فقد كانت تلك الفترة ـ فبراير ١٩٧٧ والتي كتبت فيها المقالات ـ قمة الحوار الناشب في المجتمع ، بين كافة التيارات وكل الاتجاهات ، عن شباب حول العشرين سنة من أعمارهم ، وأغلبهم دونها ، ضبطوا ـ أو هكذا قيل ـ يعبدون الشيطان) وقد شخص عادل حمودة الظاهرة ـ ظاهرة عبادة

(١) راجع محمد حسنين هيكل (أحد أبرز المخططين لمحدوديتها) في كتابه «خريف الغضب» .

الشيطان ـ تشخيصًا (يحسد عليه!) وألقى المسئولية ، كل المسئولية ، على المجتمع ، نازعًا الفتيل من يد حكومة تدينهم ، ومفتي (بعكس شيخ الأزهر الشيخ سيد طنطاوي) ينادي بإقامة حد الارتداد عليهم (القتل .. لشباب دون العشرين!) بحجة ارتدادهم عن الدين!، أو بابا المسيحيين الذي استند على الكتاب المقدس ليذوقوا نفس المصير ، ورئيس تحرير الوفد (الحزب المطالب بالديمقراطية) . الذي أراد تحويلهم إلى محكمة عسكرية حتى لا يستفيدوا بفرص النجاة التي يوفرها لهم قاضيهم الطبيعي (الديمقراطيون الليبراليون يطالبون بمحاكم عسكرية!!)، وأيضًا من يدي الكاتب فهمي هويدي الذي راح يحاكم فيهم ـ كعادته . دعاة الفكر الحر !! (كأن الحرية هي التي تقود إلى عبادة الشيطان) .

قال عادل حمودة في مقاله :

«للحزن ، للوجع ، للفشل ، للإحباط أبناء يكبرون ».

«للخرافة التي تسكن العقول، للقدوة المفقودة في المدارس والمنابر والبنوك ، للفكر التافه كقشرة موز في مناقشات ومشاجرات المثقفين ، للتاريخ المشوه كممسحة لأخطاء الحاكم .. أبناء يكبرون» .

«للتطرف ، للتعصب ، للفساد ، للتشنج ، لعذاب القبر ، والثعبان الأقرع .. أبناء يكبرون » .

وقال عادل حمودة :

«لم يسأل المحققون أين الشيطان في تصرفات الكبار! » .

«إن الشيطان يسرب الامتحانات في الجامعات ، ويمنح القروض بالمليارات في البنوك ، ويزور الانتخابات في سيرك الديمقراطية ، ويدعم الإرهاب في الصحف القومية ، ويستخدم الفتاوى حسب هواه في العبث بعقول الناس ، فلماذا نلعن

أبناءها إذا لجؤوا إليه ؟!» .

وأنهى عادل حمودة مقاله بالكلام عن مظاهرات الطلبة في عام ١٩٦٨، موضحًا أن كل جيل يبدأ بالرفض .

أحسست وأنا أقرأ لعادل حمودة مقاله أن جيلنا (الذي يربط الظواهر الشاردة في سياق حقيقي ، ربما يبدو للآخرين بعيدًا عن التصور!) يتكلم .

أحسست أن جيلنا يتكلم ، فقررت أن أتكلم معه .. وأن أرد على «عبد الله كمال» (وكان هو المفجر الحقيقي لقضية عبدة الشيطان) والذي ـ لعلك تذكر ـ تساءل «أين هم الآن». وكان يقصدنا نحن .

أعددت ردى .. وذهبت إليه .

كان الرد بعنوان : «لا تسألوا عنا اسألوا عمن ضربوا فكرة المشاركة ، وأوقعوا الوطن في براثن العنف ، حتى عُبد الشيطان في هذا البلد !!» .

قلت في الرد :

«لقد حاول جيلنا المشاركة في صنع بلاده كما يحلم بها .. فضُرب .. وشُوه ، بعد أن فشلوا في احتوائه على طريقتهم ، وفي طريقهم فكان الرد الطبيعي ممن هم أقل ثقافة في جيلنا ، هو اندلاع العنف في المجتمع بأشكال مختلفة ، وبأقنعة يتم تبادلها : عنف على الذات ، وعنف ضد الآخرين ، وعنف ضد المواطنة ، وعنف ضد الوطن .. بل وعنف ضد الإنسانية .. عنف يتخفى في صورة تفشي ظاهرة الإدمان .. (عنف على الذات) ، وفي الجرائم العادية (زيادة عدد الطعنات حتى وصلت إلى سبعين في جثة واحدة ، وقتل الأب والأم والإخوة بممارسات شرسة ، وحالات الاغتصاب التي يراد بها إذلال الضحية وخطيبها ، وليس تصريف حاجة وقتية ، وجرائم النصب الاقتصادية و... و... وكلها عنف على الآخرين) . وفتنة

طائفية مصنوعة ومزعومة ومفتعلة ، تختفي لتظهر ، وتظهر لتختفي (عنف على المواطنة) ، وعنف على الوطن (الانتماء ثقافيًا لمجتمعات حولنا ، أو بعيدة عنا ، مع أننا الأطول قامةً ثقافيًا ، (حتى لو سكتت عن ذلك) ، أو اعترفت به تلك المجتمعات!!) وعنف ضد الإنسانية نفسها (عبادة الشيطان) وكل ذلك فضلاً عن العنف السياسي (الذي تغمض الحكومة عينيها عن كل الأشكال عداه ، خصوصًا في تلك اللحظات التي يطول فيها ـ أو يكاد ـ لحمها الحي) لجماعات أرادت ـ أن تستند على الأقوى (الله) في مواجهة قوى لا قبل لها بها، (هي قوى السلطة المطلقة الغاشمة ، وإن فعلت في المواجهة ما لا يقبله الله .. وما لا يقبله الوطن !!).

وقلت :

«لقد اغترب الإنسان المصري في بلاده .. وخارجها .. بعد أن سدت في وجهه عمدًا ، وبألاعيب محكمة أبواب المشاركة ، والمغترب ، مستوحش ، والمستوحش وحش!.

وأخذ عبد الله كمال الرد .. وأخذني إلى عادل حمودة (رفيق الكفاح القديم والجديد) وقرأ عادل حمودة الرد.. وغاب في سهوم (اعتاده من يعرفه) .. وقال بعده :

– هشام.. اكتب عن جيلنا .. عن الحركة الطلابية .. اكتب تحقيقًا سياسيًا تأخر صدوره خمسًا وعشرين سنة (هكذا وضع عادل حمودة العنوان بحسه الصحفي المذهل قبل أن أكتب!!).

وقال عادل حمودة (الصديق) :

– خذ من الصفحات ما تشاء .

لكن رئيس التحرير قفز بسرعة من داخله ، فقال :

– أربع صفحات في كل عدد حتى ينتهي ما تريد قوله .. كويس؟

قلت :

- كويس جدًا .

قال :

اتفقنا.. وضب صفحاتك كما تشاء ، واملأها بما تشاء .. أنت تعرف كيف نكتب (كان يقصد كيف يكتب جيلنا).. واعتبرني قارئًا لمقالاتك، بعد أن تصدر في المجلة .

وكان عادل حمودة ـ صادقًا ـ عند كلامه .. لم يتدخل مطلقًا .. في المقالات .. وكانت تلك هي البداية «الفعلية» للمقالات التي صارت الآن كتابًا بين يديك .

■ ■ ■

لكننا قلنا إنه كانت هناك بداية «حقيقية» للمقالات .. وقلنا أن تلك البداية «الحقيقية» ، تأخرت عشرين سنة .. أو كان المفترض أن تتم منذ عشرين سنة .. وهذا واقع .. وحقيقي.

كان المفترض أن تكون البداية الحقيقية لتلك المقالات وهذا الكتاب في العام ١٩٧٧ ! .

ففي ذلك العام ١٩٧٧ ، فوجئت الأمة المصرية بحدثين مروعين مدويين!! . وراحا دون أن ينتبه أحد لمغزاهما .

أول الحدثين : كان انفجار مظاهرات الجوع في يناير ١٩٧٧ ، وذلك الحجم الهائل من العنف الجموح الذي صاحبها [1] . (تلك الانتفاضة التي أصر الرئيس السادات على أن يسميها «انتفاضة الحرامية»، على عادة العسكريين في تشويه كل مبادرة

(١) خسرت مصر في تلك الانتفاضة ٩٠٠ فرد غال بين قتيل وجريح ، وقبض على ١٢٥٠ ، نسبة كبيرة منهم من الطلبة .

جماهيرية وجيهة الأسباب!) .

ثاني الحدثين : كان اغتيال «الشيخ الذهبي» على يد جماعة «شكري مصطفى» (جماعة المسلمين) ، (التي أسمتها المباحث العامة «التكفير والهجرة») .

الحادث الأول جاء في يناير في بداية عام ١٩٧٧ .

والحادث الثاني جاء في يوليو ، في منتصفه .

كنت وقتها مجندًا في القوات المسلحة ، ممنوعًا من الاتصال بالصحف.. وبرغم ذلك .. قررت أن أكتب لصباح الخير (كان الرئيس السادات ، بعد انتفاضة الجوع قد أزاح عن «روز اليوسف» طاقمها الممتاز «عبد الرحمن الشرقاوي ، وصلاح حافظ ، فتحي غانم» ، وأتى بمن انتزعوا أنياب المجلة الصحفية ، فتهاوى توزيع المجلة الذي كان قد وصل وقتها إلى عنان السماء ، وتهاوى تأثيرها![1].

في مجلة «صباح الخير» ولم أكن أعرف من وقتها فيها أحدًا ـ سلمت المقال .. (المقال الذي لم ينشر .. وكان المفترض أن يكون البداية الحقيقية لهذا الكتاب) .

كان عنوان المقال : «العنف .. يدق أبوابكم بمنتهى العنف !!» .

قلت في المقال : «لابد وأن ننتبه ، وإن جاء انتباهنا متأخرًا ، إلى تغيير كيفي يحدث في الشخصية المصرية ، إن لم يكن ـ حتى الآن ـ هو اتصافها بالعنف .. فإنه سيقودنا إلى عنف قادم أشد هولاً .

وربطت في ذلك المقال بين تصرفات الجموع العنيفة في مظاهرات الجوع (انتفاضة يناير ١٩٧٧) ، وبين ذلك المدد الكبير من الشباب ، الذي استطاع «شكري مصطفى» أن يحصل عليه ، ليكون منه جماعته الشرسة ، ثم ربطت بينهما

(١) نفس الأمر الذي حدث لعادل حمودة منذ وقت قصير وللمجلة «روز اليوسف» أيضًا .

وظواهر عنف مرت بنا دون أن نلاحظها الملاحظة الدقيقة الواجبة (حادث الفنية العسكرية ١٩ أبريل ١٩٧٤، والذي قام به تنظيم صالح سرية المكون فقط من الشباب ومن الطلبة .. حادثة ضباط الاحتياط ، التي نتجت عن مشاجرة في ميدان العتبة ، اشتعل فيها الميدان والناس ، وتحطم فيها قسم الشرطة ، واعتُدى على ضابطه ، بل وجرت فيه محاولة ـ مبكرة لنهب «السلاحليك» ـ وهي الحادثة التي ـ ربما ـ كانت السبب وراء إصرار السادات على تجويع الشباب المدرب على السلاح ، وبعثرته في بلاد الناس ، إبعادًا له ولخطره ، الذي رأى بوادره) وبين ظواهر أخرى ، اجتماعية تتصف بالعنف .. وقلت : إن شيئًا لا يجمع هذه الظواهر كلها ، إلا بذرة العنف التي ستورق في احمرار ، وستروعنا في السنوات القادمة ، إذا ما بقي التجاهل السطوي للمشاكل الحقيقية للناس في مصر ، ولحقِّهم في المشاركة الفاعلة في تسيير أمور الوطن .

وشرحت (إن اعتمادنا السخيف ـ الذي نركن إليه دائمًا ـ على ما تعارفنا عليه بأنه «الشخصية المصرية» التي لا تميل إلى العنف .. هو تكيد لأسلوب غير علمي ، ودفن للرؤوس في الرمال .. فالعلم يؤكد أن في الإنسان طاقة عدوان، إما أن توظف في التفوق (وهو عدوان مشروع على الآخرين) أو تسعى جامحة إلى التحطيم (تحطيم الذات ، وتحطيم الآخرين) .

وقلت : إن الإنسان المصري .. لا يختلف ـ في هذه ـ عن أي إنسان آخر في أي زمان ومكان .. وإذا ما كانت البيئة تشارك في صنع طبيعة الإنسان ، فإن التغيرات الحادثة في البيئة ، تساهم في تغيير ما اعتدنا أن نسميه ، «طبيعة الإنسان المصري» .

وقلت : إن البيئة قد تغيرت في مصر .

الانفتاح : جاءنا بالتوحش المسعور من جانب الأقلية ، وجاءنا بعجز السواد

الأعظم عن تحقيق ما أصبح متاحًا وميسورًا - بدون مبرر - لتلك الأقلية .. جاء «بفتارينه» العريضة في المحلات، في نفس الوقت الذي تتآكل فيه قدرة السواد الأعظم الشرائية ، لقد أصبح السواد الأعظم وليس لديه الاستطاعة إلا في أن يراقب ما يحدث في بلاده .. وأن «يشاور عقله!!» ، فهناك - ممن هم حوله ومنه - من انطلقوا بسرعة الصاروخ من تحت خط الفقر إلى آفاق «المليون» ، دون سبب واضح ، دون قوة حقيقية ، إلا اقترابهم من أصحاب النفوذ.. (صغروا أصحاب النفوذ هؤلاء أو كبروا... لقد كان الاقتراب من أصحاب النفوذ يعني الاقتراب من التوكيلات الانفتاحية (أو لنقل الانفتاحية).

الحل الجمعي : يتم ضربه تحت لافتة الهجوم على جمال عبد الناصر وعصره «الانغلاقي».. بينما الحل الجمعي هو مسؤولية المجتمع عن أفراده .. أو مسؤولية الأفراد عند الأفراد.. لقد ترك الباب مفتوحًا للحل الفردي .. «أنت مسؤول عن نفسك وحدها .. خذ فرصتك بيديك» .. (والذي سيأخذ فرصته بيديه ، لو لم يجد فرصة.. فسوف يستعمل يديه في شيء آخر .. العنف) ، إن الرئيس السادات عندما أطلق «بغرض التشويه» على انتفاضة يناير ١٩٧٧ ، اسمًا هو «انتفاضة الحرامية» لم يتساءل ولم يسمح لأحد بأن يسأل.. لماذا يمد المصريون أيديهم ليلتقطوا فرصتهم سرقةً، وهم يمارسون العنف في عصره؟! .

الحكومة تتراجع : عن مسؤولياتها (عن مسؤوليات كل حكومة في أي مكان من العالم) بدعوى مغلوطة يروج لها ، هي أن الحكومة لا تستطيع أن تفعل كل شيء .. (الحكومات في العالم لا تترك أي شيء .. الحكومات تنظم كل شيء .. سواء قامت به هي من مصادرها السيادية ، ومنها أموال دافعي الضرائب (يمكن القول أن عصر الرئيس السادات ، كان العصر الذهبي للتهرب الضريبي ، بل العصر الذهبي

لتصالح الحكومة مع التهرب على حساب الشعب الفقير .. والذي يتم إفقار فقرائه بمنتهى الضراوة ، ودفع الطبقة الوسطى فيه إلى أسفل ، الأمر الذي انعكس على القيم - والطبقة الوسطى خزائنها - فانهارت . وتغير وجه المجتمع الجميل إلى تلك الملامح الشائهة التي لم نعد نرى غيرها الآن .. أو قام به الأفراد (القطاع الخاص) إن الحكومة لا تخلع يدها من الأمور .. وإلا فما هو المبرر لوجود أي حكومة؟ ... على سبيل المثال فإن على الحكومة أن تضمن لشعبها رعاية صحية متكاملة .. سواء قدمتها بالمجاني ، وأنفقت من مواردها السيادية ، التي تستطيع زيادتها بالضرائب المباشرة وغير المباشرة ، على القادرين ، أو لم تقدمها مجانية . وسمحت للقطاع الخاص بأن يشارك في نسبة كبيرة من مؤسسات الرعاية الصحية ، إن الحالتين لا تنفيان دور الحكومة في ضمان وصول الخدمة الطبية إلى مستحقيها وأن تجعل الدخول قادرة ألا يحرم أحد من تلك الخدمة الضرورية مثلما تقر حقوق الإنسان .. هذا مثال يمكن القياس عليه في كل الأمور ، وإلا - فمرة أخرى - أي مبرر يجعلنا نقبل بوجود حكومة !!) .

ولقد كان من أهم الأمور التي تراجعت عنها الحكومة .. وخلعت يدها منها .. (فقد صارت عملية خلع اليد فلسفة من ذلك الوقت [1])، هو التزام أي حكومة بأن تعطي موظفيها ، وأن تضمن لغير موظفيها بالقانون ، مرتبات - مقابل أعمالهم - تفي باحتياجاتهم الحياتية الضرورية الكريمة ، وأن تقاوم بهم (بإنتاجهم) ومعهم

(١) بدأ الترويج لهذه الفلسفة الزائفة للإخوان على ومصطفى أمين - بمجرد إسقاط قضية التجسس عن الأخير ، وإطلاق سراحه ، بزعم أن حالته الصحية لا تتناسب وسجنه ، ثم حمل لواءها أفراد الكتيبة الصحفية التي كونها الإخوان - مصطفى وعلى - وآخرين، بتمويل رتبه - فيمن رتبوه - عثمان أحمد عثمان والشيخ عبد الحليم محمود ، حيث تم دفع مبالغ كبيرة في مقابل أي كتاب - غث - يكتب لتشويه الفترة الناصرية ، وقد يلاحظ القارئ - كما لاحظت - أن أغلفة تلك الكتب رسم معظمها الفنان (!) مصطفى حسين ، لقد كان هؤلاء الذين حصلوا على الثمن دعاة خلع يد الحكومة من مسؤولياتها في الصحف القومية .

(بالإشراف) الارتفاع الزائف للأسعار ، خلعت الحكومة يدها من الأمر بدعوى أن ليس لديها ما هو أكثر ، وأنها تعطي ما في يدها ، وما في إمكانياتها (الحكومة مسؤولة عن أن تفي إمكاناتها بالضروري .. المطلوب) ، وذلك في نفس الوقت ، الذي كانت تخطط فيه لانفتاح استهلاكي يقضم من الدخل القومي ولا يضيف إليه ، (لكي ينقص ما في يدها ، وما في إمكاناتها!!) ضاربة كل فرصة لاستثمار إنتاجي (بتحويل المدخرات إلى الإشباع الاستهلاكي) يوسع فرص العمل بنسبة مستقبلية مناسبة ، ويوسع أيضًا فرص العائد على العمل ، أيضًا في نفس الوقت ـ الذي تسمح فيه (الحكومة) لموارد آتية من قروض أثقلتنا بها دون عائد منذ عام ١٩٧٤ (وزارة د. عبد العظيم حجازي)، ولنهر موارد من منح دول النفط العربي ومن تحويلات المصريين من الخارج ، أن يختفيا في غلاء مصطنع قائم على المضاربة (لا عائد من ورائه .. فهو مجرد بيع وشراء بقيم مصطنعة) وفي جيوب البعض من الفاسدين ومن المستفيدين من أكذوبة الاستيراد «بدون تحويل عمله» ، الذي التقط العملات الحرة من منابعها ـ في الدول العربية من العاملين المصريين بها ـ وأدخلها البلد سلعًا استهلاكية بأسعار شديدة الارتفاع ، تماثل أسعارها في الأسواق العربية المفتوحة ، أسواق الوفرة التي لا ضابط ولا رابط بها ! ، ثالثًا ـ في نفس الوقت ـ الذي لا تمل فيه الحكومة عن الادعاء بضعف مواردها وبحاجتها الملحة للعملات الحرة التي لا تجد رائحتها (!!) ، تغض النظر عن المفسدين والفاسدين (حتى يصبح الواحد منهم غولاً لا يبقى ولا يذر) وتصالحهم ضريبيًا ـ أيضًا ـ على حساب مواردها السيادية !!! ، أو تصالحهم عند المدعي الاشتراكي!! .

أسلوب «العقلنة» : في التعامل مع المغرب .. وأسلوب العقلنة ، لم ولن يعني أكثر من أن نرتضي نحن بما يرتضيه الغرب ، فنحن لا نتشنج »[1]، ولا نضرب رأسنا

(١) كلمة الرئيس السادات الأثيرة ، التي كان يعتبرها فارقًا بينه وبين جمال (الله يرحمه) .

بالحائط ، ولا ننطح الصخر الأمريكي ، وهكذا نكون عاقلين ، عقلانيين ، متعقلين ، متعقلنين ، نفهم المتغيرات من حولنا كما يجب أن تُفهم !!! ، أسلوب العقلنة هذا (الذي هو رضوخ كامل) ضَرَبَ العزة الوطنية والقومية (طاقة العدوان المشروعة في مسارها الصحيح «التفوق» ، والتي لا تسمح في نفس الآن بظلم الآخر والانتقاص من حقوقه) ، ضرب العزة الوطنية في مقتل .

وقلت في المقال « ألا زلت تذكر ؟ » : « إن رد السواد الأعظم الوحيد والممكن ، على كل ما سبق ، لن يكون إلا العنف ، ذلك العنف الذي يختفي تحت أقنعة مختلفة ، والذي سوف ينفجر ـ بعد ذلك ـ مفضوحًا واضحًا » .

لم تنشر المقالة « وأنا أعذر صباح الخير ، فقد كانت حساسية الرئيس السادات ، الذي قرر وقتها التراجع عن الديمقراطية [1] ، تزداد في مواجهة كل كلمة مكتوبة ، وضد كل من يسمح بنشرها ، كان السادات وقتها ـ بعد انتفاضة يناير ١٩٧٧ ـ قد كشر ـ تمامًا ـ عن أنياب ديمقراطيته ! » .

وهكذا وئدت «البداية الحقيقية» لهذا الكتاب ، وتأجلت عشرين سنة كاملة !

■ ■ ■

والحقيقة أن تلك البداية الموؤدة لهذا الكتاب ، دشنت قصته .

ألم نقل منذ البدء أن كانت للكتاب بداية حقيقية ، وبداية فعلية ، وقصة الآن جاء دور القصة .

منذ حُجب المقال عن النشر ، لم يعد لي هم ، إلا تعميق تلك الفكرة التي احتواها ، والتي تؤكد أن بديل الديمقراطية « المشاركة الحقيقية الفعالة في تسيير أمور الوطن »

(١) راجع « خريف الغضب » لمحمد حسنين هيكل ، و« مذكرات صلاح حافظ » مايسترو الصحافة المصرية ، لرشاد كامل .

عنف .

وإن بديل العدل الاجتماعي ... عنف !!

وبديل العزة الوطنية والقومية ... عنف .

وأن للعنف مظاهر لا تتم دراستها ولا الانتباه إليها ، وأن الحكومة لا تركز تفكيرها ، وقدراتها إلا على العنف السياسي الذي يطول لحمها ـ هي الحي ، أما المصري ، وقيمه ، ومستقبله، فموضوع لا يخطر على الأذهان !!

ورحت أجمع مادة الكتاب .

■ ■ ■

كان السادات وقتها قد أسكت الصحف القومية ، وراح يتوعد الأحزاب وصحفها المعارضة ـ علنًا ـ متهمًا ما تكتبه بأنه « تجاوز وبذاءات » ، مهددًا بأن للديمقراطية أسنان ، وأنياب .

لقد أرادها هي الأخرى ـ الأحزاب وصحفها ـ أن تسكت .

أما هو فلم يسكت .

كان قدره ـ وقتها ـ يقوده إلى نهايته .

كان في ورطة شديدة الغور ـ في عام ١٩٧٧ ـ أوصل نفسه ، وأوصلنا إليها ، بسياسته التي يحلو للبعض أن يصفها بالعبقرية !!

وكانت ورطته شديدة الغور تعبر عن نفسها داخليًا وخارجيًا .

داخليًا ، لم يكن يستطيع التراجع أو العمل لصالح الجموع الغفيرة ، تلك الجموع الغفيرة « السواد الأعظم »، التي روعته في يناير ١٩٧٧ ، وأرته نهايته ، قبل النهاية الفعلية بأربعة أعوام ، وشهور تسعة « تقل قليلًا » ، كان التراجع يعني أن يتخلى عن

الطبقة الانفتاحية « المسعورة » ، التي أفرزها عصره ، والتي أنشبت أظافرها في كل شيء من حوله ، حتى أصبحت « فعليًا ، وثقافيًا بممارسة الردح الإعلامي ضد مهاجميه » هي التي تحميه ، فضلًا عن أن أحلامه وأحلام أسرته الصغيرة والكبيرة ، كانت ضمن أحلام تلك الطبقة ، لقد تصور السادات أن عليه أن يرسخ قواعد تلك الطبقة السعرانة ! كي تترسخ قواعد حكمه ، غير هذا ، كانت صورته أيضًا لدى الغرب وأمريكا بالذات « التي لم تحم أحدًا من أنصارها من قبل » على أنه المؤيد للرأسمالية ، تلك الصورة التي كانت تهم طموحاته كثيرًا ، ستهتز إذا ما تراجع ، أيضًا صورته في مرآته هو ، التي رسمها لنفسه ـ خطأ ـ على أنه آخر الفراعين ـ المؤمن ... الملهم ، و... كانت سترتج ، ولم يكن السادات مستعدًا لاهتزاز صورته لدى طبقته ، ولدى الغرب ، أو في مرآته الخاصة .

سبب آخر مهم كان يمنع السادات من التراجع ، هو : أن الاتجاهات الدينية التي لم يتوان السادات عن النفخ في قدراتها « كانت هناك اتجاهات دينية أخرى يعتبرها السادات من أعداء نظامه ، أو من أنصار العدالة الاجتماعية ووصف أعضائها فيما بعد بأنهم شيوعيون أطالوا لحاهم » إذ رآها ـ الاتجاهات الدينية التي كانت يؤيدها وتؤيده ـ حليفة طبقته الجديدة الوحيدة ، في مواجهة اليسار « من الشيوعيين الناصريين الذين راح يضربهم بعنف ، بعد أن حمّلهم آثام انتفاضة الحرامية في يناير ١٩٧٧ والتي كانت بحق انتفاضة ضد الحرامية وفي مواجهتهم » .

وراح يصفهم بأنهم : « المتاجرون بآلام الشعب » كانت تلك الاتجاهات الدينية لن تقبل تراجعَهُ ، فقد كانت ضد أي صيغة ـ ولو مهتزة ـ للاشتراكية ، لقد كانت تلك الاتجاهات في حقيقة أمرها ـ تستخدم الفقراء لتحقيق مصالح طبقية ، رأسمالية ، بدعوى أن الاشتراكية ـ بهتانًا ـ هي الإلحاد ، وهي الوقوف ـ افتراء ـ ضد سنن الله

في عباده ، وأن الزكاة ـ قصورًا ـ هي المشروع الاقتصادي الإسلامي ، القادر على حل مشاكل الفقراء ، وأن الإسلام ـ ظلما ـ دين التكافل الاجتماعي « فدعونا من العدل وسيرته ، التكافل أحسن » !!

وهكذا ظن السادات أن تراجعه يعني انقلاب كل حلفائه ـ في الداخل والخارج ـ عليه .

خارجيًا ، كان السادات في ورطة رهيبة ، فهو من باب « العقلنة » وعدم التشنج « اللذين يعنيان ارتضاء ما يرتضيه الغرب لنا » كان قد ضحى بالاتحاد السوفيتي ـ وقتها ـ كمصدر رئيسي لتسليح قواته المسلحة ، « ظانًا ـ وبعض الظن إثم ـ أن الغرب سيسلحه » ، وكان قد انغمس حتى أذنيه في متاهة فض الاشتباك ، على مراحل ، مع العدو الصهيوني ، برعاية الولايات المتحدة الأمريكية ، الأمر الذي كان يتعثر تعثرًا مخزيًا ، لقد بات واضحًا أن مصر التي انتقلت من صفر الهزيمة وتحطيم أداتها العسكرية بالكامل ، إلى الفعل الأكتوبري المبهر « بكل المقاييس » في ست سنوات « كان من الممكن أن يقلوا عن ست » ، مصر هذه ـ التي خرجت من الحرب منتصرة « رغم أنف المتعقلين » تتعثر أربعة أعوام ـ كاملة ـ في طريق فض الاشتباك الوعر ، الذي صمم السادات - استراتيجيًا وإرضاء للغرب ـ على أن يخوضه ، وها هو ذا في ١٩٧٧ لا يرى له نهاية ، وها هو ذا يرى وقد ضحى بمصادر تسليحه « لقد كانت التضحية بالاتحاد السوفيتي كمصدر للتسليح خطيئة كبرى ، فقد كان الاتحاد السوفيتي منذ النصف الثاني من السبعينات ، مستعدًا لبيع أي شيء ، ولا أظن أن الهند النووية ، والباكستان النووية إلا نتاجًا لاقتناص تلك الفرصة » ، ها هو يرى وقد ضحى بمصادر تسليحه أن التوازن التسليحي الذي اختل في معارك أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة لصالح مصر « خرجنا من الحرب والميزان العسكري

يتراوح في الطيران بين (٣: ١) لصالح مصر ، وفي الدبابات (٤: ١) لصالح مصر ، ناهيك عن المدد البشري الضخم في مصر » قد تم تعويضه كاملًا لصالح إسرائيل ، في الفترة من (٧٣ إلى ١٩٧٧) [١] ، وأن الأمريكيين الذي لا يكيلون أبدًا بمكيال واحد مصممين على تدعيم التفوق التسليحي لإسرائيل ، وأن يكون الميزان ثقيلًا في كفتها إذا وزنت مع كفة العرب مجتمعين « وبالطبع لم تكن طبقته الانفتاحية وحلفاؤها من الاتجاهات الدينية ، يقبلون عودته للاتحاد السوفييتي ، ولو كمصدر تسليح ، فضلًا عن أنه كان قد قطع كل الجسور بينه وبين الروس » .

كانت تلك ورطة السادات داخليًا وخارجيًا « التي أوصل نفسه وأوصلنا إليها بسياسته » ونتيجة لتلك الورطة ، كان على السادات العاقل ، المتعقلن أن يأتي بأفعال لم يكن من الممكن أن تتصف بالعقل .

في مواجهة اليسار « المغامر ، المتاجر بآلام الجماهير » راح يتاجر هو بالرخاء العميم القادم « بينما سياساته تبشر بتركيز الثورة في أيدي القلة من البعض ، وسحق الجماهير العريضة » .

وفي مواجهة العنف الشعبي المتصاعد ، راح يعد مسارًا تسريبيًا للعنف هو « الفتنة الطائفية » « راجع تصريحات السادات عن ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كل المصريين ، وتصريحاته ضد البابا والمسيحيين [٢] ، ووصول الأمر إلى ذروته بعزل البابا الذي التجأ إلى دير وادي النطرون » .

في مواجهة فشله سياسيًا في تحقيق النتائج التي أسفرت عنها حرب أكتوبر الخالدة التي قلبت نظرية الأمن الإسرائيلية رأسًا على عقب ـ حقًا وصدقًا ـ راح

(١) راجع أمين هويدي ، الفرصة الضائعة .

(٢) اتهم المسيحيين بأنهم يحاربون القوى العربية والوطنية في لبنان .

يعد للصلح مع إسرائيل ، وإلى نزوله السينمائي في مطار تل أبيب « التعبير لجولدا مائير » ، ووقوفه في الكنيست الإسرائيلي يخطب السلام ، وفوق رأسه حفر غائر على الحائط يقول : إن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، زاعمًا ـ وبعض الزعم إثم ـ أن المشكلة لا تزيد عن كونها مجرد حاجز نفسي بين العرب وإسرائيل ، بينما بيجن يتكلم عن يهودا والسامرة تملكتي إسرائيل اللتين أقامهما داوود المحارب « صاحب النجمة السداسية » المملكتين اللتين تلتهمان مزيدًا من الأرض العربية، غير ما تسيطر عليه إسرائيل الآن بالفعل .

اضطر السادات العبقري (!!) إلى تلك الأمور الثلاثة ، وكان في تلك الأمور الثلاثة مقتله .

لقد تصرف وبوحي عبقريته « التي روح لها أنصاره وجوقته الإعلامية » مضطرًا فقتلته اضطراراته ، وقتلته العبقرية المزعومة .

كان الرخاء الذي لم يأت ، عاملًا مؤثرًا في مقتله .

وكانت الفتنة الطائفية عاملًا .

وكان صلحه مع إسرائيل قشة ضربت ظهر البعير فقسمته .

اتهم المسيحيين بأنهم يحاربون القوى العروبية والوطنية في لبنان .

لقد كان القدر يعد لعبقرية السادات منذ بداية العام ١٩٧٧ إلى نهاية السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، ضربات ستقود البطل التراجيدي إلى حتفه المقدور .

فالسادات الذي فرح بتحطيم حركة الصغار « الطلاب » واليساريين « شيوعيين وناصريين » ، تلك التي واراها وراء قضبان ثخينة ، من التشويه ، والقمع ، والتهديد ، واستعداء التيارات الدينية الموالية لطبقته الحاكمة عليها ، ووارى زعماءها في زنازين مقفلة ، السادات الذي فرح بذلك ، طلعت له حركة معارضة

من الكبار « المعتدلين » تحت قبة البرلمان « نجومها الأستاذ محمود القاضي ، والأستاذ ممتاز نصار ، والدكتور محمد حلمي مراد ، والأستاذ علوي حافظ ، والأستاذ عادل عيد ، وآخرون » كانت محمية بالحصانة التي لم تكن للصغار ولليساريين ، ولقد رأى السادات من تلك المعارضة ، التي حل مجلس الشعب ، وزور انتخابات البديل الجديد ، ليتخلص منها بعد زيارته لتل أبيب « لم يستطع التخلص من الأستاذ ممتاز نصار ، فقد وقف أنصاره في البداري التابعة لأسيوط بالسلاح « العنف » في مواجهة التزوير بالعنف » .

رأى السادات من تلك المعارضة هولًا ، إذ تركزت ضد الفساد الذي استشرى في عصره ، والعمولات « التي لم يبرأ هو منها » ، وضد معاهدة الصلح مع إسرائيل ، وضد عدوانه السافر على الديمقراطية ، وقوانينه العجيبة ، من نوع « قانون العيب » و« حماية الوحدة الوطنية » ، التي هندسها الأستاذ أنور أبو سحلى ، الذي بدأ بمصادرة صحف المعارضة (الأهالي) في كرسي القضاء ، وانتهى مفصلًا للقوانين ، القائلة للحريات في مقعد الوزارة « وزارة العدل » رأى السادات من رموز المعارضة هؤلاء ما لم يكن يحب أن يراه ، أو يتصور أنه سيراه ، خصوصًا عندما انضمت لهم النقابات « وأبرزها نقابة المحامين في ذلك الوقت » .

والسادات الذي عمد إلى تسريب العنف في متاهات الفتنة الطائفية ، وراح ينفخ مزيدًا من القوة في صدور الاتجاهات الدينية المناوئة لليسار في الجامعة حتى سيطروا على عدد ضخم من اتحادات الطلاب بعد أن خلت الساحة لهم « في ديسمبر ١٩٧٧ » ، وفي صعيد مصر « حيث الأقباط الأثرياء » ، متمركزين بحركتهم حول أسيوط الجامعة تحت رعاية منشئهم ، وراعيهم محمد عثمان إسماعيل « ولقد وصل الأمر بالسادات في ١٥ مايو ١٩٨٠ ، إلى أن يتهم الأقباط المصريين ـ علنًا ـ بأنهم يحاربون

في صفوف الميلشيات المارونية في لبنان ، بالطبع ضد العروبة ، والإسلام ، وأن يتهم البابا شنودة الثالث نفسه بأنه يسعى إلى إنشاء دولة للأقباط في صعيد مصر وأنه يرتب لأن يتخذ أسيوط عاصمة لها » ، السادات الذي فعل كل ذلك « وأكثر » لتهييج الفتنة الطائفية ، وجد نفسه في « حيص بيص » ، مع الغول الذي صنعه « الجماعات الدينية والتيارات الإسلامية الموالية له » عندما قرر أن يستضيف الشاه المخلوع بثورة إسلامية في إيران (ربما ليقول لأمريكا : لا يصح أن تخلعي يدك هكذا من أنصارك) ، بل وعندما أراد أن يواجه البابا شنودة ، فقال : « لا سياسة في الدين ، ولا دين في السياسة » ، فاعتبرها الأنصار موجهة لهم أيضًا ، وأيضًا حين سعى للصلح مع إسرائيل « اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للمؤمنين » .

ولوجه الحقيقة وللتاريخ [1] ، فإن السادات لم يفهم الجماعات الإسلامية في مصر ، أما هم فقد تصوروا أنهم فهموه ، كان السادات ينظر إليهم على أنهم « أداة » يستطيع ـ بل يسهل ـ عليه استخدامها « هذه النظرة اكتسبها قبل الثورة في علاقته بالإخوان المسلمين ، وبعد الثورة كممثل لمصر في المؤتمرات الإسلامية ، ومن علاقته بكمال أدهم ، صهر الملك فيصل ، ومن علاقته بعثمان أحمد عثمان الذي أجاد اللعب على ذلك الوتر الديني خارج مصر في عهد عبد الناصر ، وفي داخلها في عصر صهره وصديقه ورفيقه أنور السادات » وكانوا ـ الجماعات الإسلامية ـ هم ينظرون إليه على أنه فرصتهم التاريخية ، أما الحقيقة فكانت عكس تصورات الطرفين .

للحقيقة ، لم تكن التيارات الدينية أداة في يد السادات يسهل استخدامها ، فالتيارات الدينية في مصر لم تكن في أي وقت من الأوقات كمًا متجانسًا ، ففضلًا عن أن التيارات الدينية الناشئة بعد نكسة ١٩٦٧ ، كانت تختلف كيفًا عن سابقاتها

(١) لي كتاب عن « العنف القادم في مصر » سيصدر قريبًا وسيوضح الصورة .

اللاتي نشأت قبل ٦٧ ، وكان منشأ الاختلاف ، أن التيارات الإسلامية قبل ٦٧ فرحت بالنكسة ، إذا كانت دليلًا على فشل النظام الذي كانت تواجهه « تذكر قول الشيخ الشعراوي : لقد سجدت لله شكرًا على نكسة ٦٧ » ، وكانت تؤذن ـ النكسة ـ بنهاية الجبار « جمال عبد الناصر » الذي روعهم في معتقلاته الرهيبة ، « انظر البوابة السوداء ، أحمد رائف ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٥ » ، أما التيارات الجديدة « بعد النكسة » فقد نشأت في مواجهة النكسة وضد الهيمنة الغربية بمحاولة الاستعلاء العرقي والديني عليها ، صحيح أن الاثنتين « تيارات ما قبل النكسة والتيارات بعدها » قد استخدموا النكسة في مواجهة النظام ، لكن الفارق يكمن بين من فرح بها ، وكان يفكر أمميًا ، وله تراث في استخدام علاقاته بالغرب ، وفي استعدائه أيضًا على مناوئيه في الداخل ، وبين من أغضبته النكسة ففكر وطنيًا « أتكلم هنا عن التيارات الإسلامية حتى مقتل السادات ، وليس عن التيارات الأحدث بعد ١٩٨٤ » ، وصحيح أيضًا أن الأمميين والوطنيين « لا أنفي صفة الوطنية عن الأمميين ـ أتكلم هنا عن أسلوب تفكير لبعض الجماعات » كانوا يرون في السادات فرصتهم التاريخية ، لكن الأمميين كانوا أكثر استعدادًا للمهادنة ، إن لم يكن للقبول به ، « وصحيح أيضًا أن كل التيارات الإسلامية ، أممية ووطنية ، كانت ضد الصلح مع إسرائيل من موقف ديني » ، والسادات عندما صنع تيارًا دينيًا إرهابيًا يساند سلطته ، لم ينظر إلى وجود تيارات دينية تخالفه نظرة فيها تعمق ، ولم ينظر أيضًا إلى أن محاولاته في ضربها لاستحداث تياره الديني الخاص ، لن تمر بسهولة ، ولهذا بقيت التيارات الدينية المعارضة للسادات تحت الأرض مستفيدة في حركتها من حركة « السماح » الواسعة التي أولاها السادات لتياره الخاص .

وعندما اختلف السادات مع التيارات الدينية كلها حين قال : « لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة » ، اختفى التيار المصنوع « وهذه طبيعة الانتهازية فيمن

يتم صنعهم » وانشقت الأرض عن التيارات المعادية له ، في وقت كانت التيارات الدينية الأممية « الإخوان المسلمون ومن خرجوا من عباءتهم ، وليس من خرجوا عليهم كصالح سرية وشكري مصطفى » يمسكون بالعصا من منتصفها ، ألسنتهم ضد الخوارج وقلوبهم معهم .

ذلك التقسيم « بين غير المتجانسين » لم يفهمه السادات ، وأيضًا لم ينتبه إليه المحللون الذين يتكلمون عن التيارات الدينية « ككم متجانس ، وتيار واحد صنعه السادات ثم انقلب كل منهما على الآخر » .

هكذا بدت وقائع ثلاث مستعصية على التفسير ، ضمن كثير غيرها ، « وقد حدث خلل كبير في تفسيرها » .

الواقعة الأولى : حدثت بينما كان القاضي يعلن بإعدام شكري مصطفى عام ١٩٧٨ .

الواقعة الثانية : حدثت في جامع صلاح الدين عند كوبري الجامعة عام ١٩٨٠ .

الواقعة الثالثة : حدثت والرصاص ينهمر على أنور السادات في المنصة عام ١٩٨١ .

كان شكري مصطفى « أثناء إلقاء القاضي الحكم بإعدامه » يغلوش صائحًا : « يا عملاء الصهيونية ، يا أصدقاء بيجن وشامير ، يا عبيد الأمريكان » ، ولم يذكر غضبته الدينية في « غلوشته » « ولا مجال للظن ـ طبعًا ـ بأنه كان ، يريد أن يؤلب الناس ضدهم بما يكرهه الناس لا بما يكرهه هو ، لقد كان يعلم أنه مشنوق ، وكان يعلم أن الجلسة سرية ، ثم إنه لو كان يريد أن يؤلب الناس على شانقيه ، لاختار أن يؤلبهم بالدين » .

الواقعة الثانية : حدثت عندما أرادت الجماعات الدينية بالجامعة « وعلى رأسها الجماعة الإسلامية » أن تقيم معسكرًا داخل حرم جامعة القاهرة (١٩٨٠) ، ورفض التصريح لها ، فصممت على إقامته دون تصريح ، فواجهتهم قوات الشرطة

واقتحمت الجامعة، وأخرجتهم منها « الناس تتصور أن السادات اقتحم الجامعة مرة واحدة في يناير ١٩٧٢ » ، فاندفعوا إلى جامع صلاح الدين عند نهاية كوبري الجامعة أو بدايته القريبة من قصر العيني واحتلوه ، وفتحوا مكبرات الصوت فيه ، وهاجموا الفساد ، والصلح مع إسرائيل ، و« التتار الجدد » الذين يتظاهرون بالإسلام ، بينما أفعالهم بعيدة عن تعاليمه « إذن لم يكن الأمر أمر دين فقط، لكن التدين كان تعبيرًا عن غضبة سياسية عارمة » .

الواقعة الثالثة : حدثت أثناء تنفيذ اغتيال الرئيس السادات ، إذ تصايح الذين هاجموه ليقتلوه : « تحيا مصر » ، وكانوا أعضاء في تنظيم الجهاد ، « حدث هذا بينما المصريون جميعًا مسلمين وأقباط ، كانوا يصيحون : « الله أكبر » ، في لحظة العبور العظيم » .

هذه الأحداث الثلاثة ، تظهر أن تيارات ما بعد ١٩٦٧ الدينية ، قد اختلطت لديها الوطنية، التي سفح دمها على رمال سيناء ١٩٦٧ ، وفي محادثات فض الاشتباك على مراحل الرضاء ، والمتعقلن بما يريده للغرب لنا ومنا ، والصلح مع إسرائيل ، مع محاولة الاستعلاء العرقي والديني على الغرب واليهود المهيمنين علينا رغم قدرتنا عليهم التي أظهرتها معارك أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ « استعلاء تعويضيًا ، في مواجهة الانسحاق القومي الذي جاءت به الهزيمة الشنعاء ، والعقلنة الانهزامية ، وللأسف الشديد إن أحدًا لم يتتبع ولا يريد أن ينتبه إلى القضية القومية والقضية الاجتماعية لهؤلاء الذين اتخذوا الاستعلاء العرقي ـ الديني ـ وسيلة لمجابهة سلطة غاشمة كانت دومًا « أسدًا علينا وفي الحروب نعامة »، برغم دمائنا المسفوحة المنتصرة في مواجهاتنا مع الغرب « وضمن الغرب اشكيناز إسرائيل وهم اليهود الغربيون » ، مستندين على « الله » الذي لا يمكن أن يخذلهم مثلما خذلهم قادة ثورة يوليو ١٩٥٢ ، في مرحلتها الثورية والتراجعية » .

وهكذا أضاعت القوى الوطنية فرصة عظيمة للتحالف والوفاق من أجل انتصار قضايا مشتركة ، وعلى رأس تلك القوى الوطنية التي أضاعت الفرصة تلك الجماعات الإسلامية الوطنية نفسها ، ذلك أن قياداتها كانت في أغلبها مخدوعة بالسلطة المشتهاة لرجل الدين .

المهم الآن ... اختلف السادات مع حلفائه في الاتجاهات الدينية ، فقويت شوكة غير المؤيدين لسياساته من هذه الاتجاهات ، وتسيدوا الساحة ، بعد أن مهد « هو » لهم الأرضية بنفسه ، وعندما صمم على تأديبهم واجهوه ، ولما اشتموا رائحة رغبته في القضاء عليهم قتلوه .

لقد قتل الرئيس السادات ، وكل الاتجاهات في مصر تعارضه « عدا طبقته الانفتاحية الشرسة التي لم ينفعه ردحها الإعلامي » من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .

وفي تلك اللحظة كان العنف قد استفرد بالصورة واضحًا جليًا بلا أقنعة ولا تزويق .

■ ■ ■

بمقتل السادات واستفراد العنف بالصورة ، كانت مرحلة أخرى من قصة هذا الكتاب على وشك أن تبدأ .

كنت قد نشرت قصيدة عامية في «صباح الخير » («حملها إليهم شاعر مصر العظيم فؤاد حداد الذي شرفت بصداقته في سني حياته الأخيرة ، وهي سني مجده الشعري الطاغي الذي لن يموت ») بعدها طلب الأستاذ لويس جريس « الذي أدين له بفضل كبير وأكن له احترامًا أكبر » أن يقابلني ، كانت القصيدة قد نشرت في عدد صباح الخير الذي صدر يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، يوم مقتل السادات ، « كانت صباح الخير ، منذ تولى رئاسة تحريرها الأستاذ لويس جريس، تصدر يوم

الثلاثاء بدلًا من الخميس ، وإن ظلت تحمل تاريخ الأخير ، تجنبًا للخميس الذي تتكاثر فيه المجلات الصادرة المنافسة » .

ذهبت للأستاذ لويس في مكتبه لأتعرف عليه « لم يمنعني قتل السادات والاضطراب القائم بعد الحادثة أن أذهب ، بل وأعترف بأنني ذهبت متحينًا فرصة الاضطراب لغرض في نفس يعقوب » ، وعندما قابلني الأستاذ لويس مقابلة تليق بأخلاقه الرفيعة الرقيقة ، تشجعت وفتحت معه موضوع العنف ، وموضوع تلك المقالة التي ذهبت بها إلى صباح الخير عام ١٩٧٧ ، ولم تنشر « وكان من المفترض أن تكون البداية الحقيقية لهذا الكتاب » وقلت للأستاذ لويس : إن تلك المقالة كانت تحذر مما نحن بصدده الآن .

ابتسم الأستاذ لويس ، وبعد تفكير قال :

أظن أننا الآن نستطيع أن ننشر هذا الكلام .

لحظتها بدأت كتابة المقال الثاني ، وذهبت إلى « صباح الخير » ، ليكون عليَّ أن أنتظر أكثر من شهر حتى أراه في المجلة « فهمت من الأستاذ لويس وقتها أن فترة التأخير تلك ، كان يتم فيها تبادل الآراء ، مداولة بينه وبين الأستاذ المرحوم صلاح حافظ ، عن تحين الفرصة الملائمة لنشر المقال » .

صدر المقال بعنوان « على غلاف العدد ١٣٥٣ الصادر بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٨١ » جامعي يكشف حقيقة الإرهاب : الكبار مسؤولون عن غرس الإرهاب بين الطلبة ، وكان العنوان الداخلي على الصفحة السابعة « المقال نشر في الصفحات ٧ـ ١٣ » « شاب مصري يقلب المائدة : الإرهاب مسؤولية الكبار » ، وبمقدمة كتبها الأستاذ لويس جريس تسببت في رعبي وفي « موقف شديد الغرابة » .

كتب الأستاذ لويس جريس في المقدمة :

« قرر شاب مصري أن يقلب المائدة ، أزعجه اتهام الشباب بالمسؤولية عن حركات الإرهاب الديني، « ثم خل بالك من هذه » التي كان عضوًا فيها « كتب الأستاذ لويس هذا في وقت كان يقبض فيه على من تكاسل عن حلاقة لحيته في الصباح » بينما الحقيقة أن الكبار كانوا وراءها » .

الحقيقة أن انزعاجًا « بل رعبًا » شديدًا أصابني من جراء « الذي كان عضوًا فيها » هذه « والذي دخل المعتقلات والسجون ، يعرف خطورة ما يحدث لواحد لا ينتمي للاتجاه وفصائله المنظمة ، وغير معروف لأحد منهم ، عندما يجدونه بينهم في السجن » .

في الصباح وجدني الأستاذ لويس جريس أدخل عليه ، ولابد أن وجهي كان مصطبغًا بما هو في داخلي ، فهو ما أن رآني داخلًا ، حتى انتابته موجة ضحك طويلة مقهقهة ، وقال دون أن أنبس بكلمة :

ما تخافش يا سيدي ، احنا كتبنا إنك عضو في الجماعات الدينية الإرهابية ، بس المباحث صححت لنا المعلومة ، وقالت لنا : المذكور شيوعي .

وهكذا تأرجحت في ليلة واحدة وصباحها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار .

والحقيقة أن تلك الأرجحة ، كان لها ما يبررها .

افهمني ـ وقتها ـ الأستاذ جريس « بدمائته المعروفة » ، إن المداولات التي طال أمدها وسبقت نشر المقال ، قد استقرت على تنفيذ نصيحة قدمها الأستاذ صلاح حافظ بأن المبرر الوحيد الممكن لنشر مثل تلك المقالة ، هو نشر تلك المقدمة « بالجزء الذي أوردته من قبل » لكي يجيء ـ في المقدمة ـ ما يلي :

« وفي رسالة بالغة الصراحة ، طلب الشاب من صباح الخير أن تنشر شهادته ، وقد لا تؤيد صباح الخير « هنا مربط الفرس » كثيرًا من وجهات نظره ، ولكن

الوقائع التي يستند إليها لا يمكن إغفالها ، خاصة وهي منشورة ومعلنة على الملأ وتحت نفس العنوان ـ أسرار الحركة الطلابية [1] .

وضحك الأستاذ لويس جريس مردفًا :

لم يكن من الممكن أن نقول : إليكم شيوعي يدافع عن الاتجاهات الدينية ، أو إليكم كاتب محايد يدافع عن القتلة ويتهم القتيل ، الذي هو رئيس الجمهورية !!

ثم اكتست ملامح الأستاذ لويس بالجدية وقال :

الممكن الوحيد ، كان أن نصور الأمر على أننا ننشر آراءهم ، وعلى لسانهم لكي نبرر النشر ، فآراؤهم ليست آراءنا بالتأكيد .

والحقيقة أنني لم أكن شيوعيًا يدافع عن الاتجاهات الدينية « برغم أن الأستاذ لويس أكد لي في هذه الجلسة ، بحسه الصحفي الذي يستشرف ما سيكون ، أن المحامين لن يجدوا شيئًا أكثر من كلماتي ، ومن منهجي ، ليدافعوا به عن قتلة السادات ، وقد حدث ما توقعه الأستاذ » .

والحقيقة أيضًا ، أنني لم أكن كاتبًا محايدًا يدافع عن القتلة ويتهم القتيل .

الحقيقة ، كل الحقيقة ، أنني كنت كاتبًا يتهم القتيل .

لقد كنت أتهم السادات بشيء أكبر بكثير من كونه تسبب في مقتله .

ولابد الآن أن أقتبس أجزاء من المقال ، لعل هذه الأجزاء توضح ما كنت أرمي إليه ، قلت في المقال :

---

(١) كان ضمن ما اعتمدت عليه للمقالة ، كتاب المهندس وائل عثمان من أقطاب الاتجاه الديني في جامعة القاهرة شباب الإسلام في الأعوام (٦٨، ٧٤) ، وهو كتاب أسرار الحركة الطلابية ، القاهرة ١٩٧٦ ، وقد تميز كاتبه بالصدق الشديد فيما أورده ، وفي شرح وجهة نظره المعارضة للشيوعيين الذين رآهم يسيطرون على الحركة .

« لم يعد على السطح الآن إلا غول الإرهاب البشع ، وقد أصبحت القضية الآتية ، هي محاربة هذا الإرهاب ، هذا الغول ، والقضاء عليه تحقيقًا للأمن » .

« وأخاف أن نقضي على طليعة إرهابية ، وبلا رغبة نحول البعض منهم إلى شهداء ، ينسى لهم من يجيئون يعدهم كل شيء إلا الانبهار بالشهادة ، ولا يرون فيهم إلا الهالة التي تحيط بالشهداء والنور الذي يتضوع منهم ».

[أظن أن تلك النبوءة قد تحققت] . وقلت :

لا نستطيع الآن أن نجزم بأن « العنف فوق المنصة » سوف يكون آخر محطات القطار المخيف ، قد تكون محطات أخرى في انتظارنا ، وفيها هول تقشعر منه أبدان وتتخبط في دمائها منه أبدان ،

[وأظن أيضًا أن تلك المخاوف قد تحققت].

قلت أيضًا :

« إن فلذات أكباد تضيع ، فلذات أكباد تتحول ملامحهم الرائعة البهية ، إلى ملامح قاسية ، تضمر الشر ، فلذات أكباد نكرههم وكانوا جديرين بالحب ، لولا أن شاهت ملامحهم الجميلة ، نكرههم ، لكن حسرتنا عليهم تبقى أكبر بكثير من كراهيتنا لهم ، إنهم ـ من قبل ومن بعد ـ فلذات أكباد .

« وآه كم ضاع من فلذات أكبادنا بعد ذلك » .

وقلت :

« إن رحلة طويلة قضاها الشباب المصري في دروب الضياع « والقطار الذي يروعنا ليس قطار العنف ، إنه قطار ـ الضياع ، يعبر عن غضبه بالعنف » رحلة كانت نكسة ٦٧ أولى خطواتها » .

وأوضحت « في المقال » أن بنكسة ٦٧ ضاع الحلم ، وقد كان على المجتمع أن

يتغير إلى الأفضل لكي يعيد ما ضاع ، أو يضيع المجتمع في متاهات العنف ويقع في براثنه ، من أجل هذا طالب جيلنا بالتغيير ، وعندما لم تبد في الأفق ملامح التغيير المطلوب ، خلع الشباب ثوب الانتظار ، وارتدى ثوب الغضب ، وللحق لم يكن غضبه عشوائيًا ، كان دعوة للتغيير ، التغيير إلى الأفضل ، وكان ــ الغضب ــ دعوة لمشاركة « بل فرضها لها » يريدها الشباب بالديمقراطية ، وحرية الرأي وحرية الصحافة ، وحرية وجود تنظيماته المستقلة ، في تسيير أمور بلاده ، حتى لا يفاجأ بأن أحدًا أضاع البلاد ، وأن السلطة عندما حرمت الشباب من المشاركة « ليست المشاركة ثوب الغضب » .

وتساءلت : ماذا تريدون من شباب « يطالب ... يضيع صوته ، يشارك ، لا يجد مكانًا ... أكثر من هذا يشوه ويدان دون ذنب جناه ؟ » ، وقلت : « إننا نتساءل الآن ، لماذا شوهوا الصوت البريء ؟ لماذا دفعوه دفعًا إلى المعارضة الغاضبة ؟ ولماذا يفزع المشوهون « بكسر الواو » من وجه الغول المخيف وكفيه الداميتين ، أم يكونوا يعلمون أنهم يخلقونه ؟ » .

كنت أقصد « وقد وضحت قصدي ذلك » بالغضب ، وبالمعارضة بالغضب ، حركة الطلاب الصاخبة من (٦٨- ١٩٧٧) .

ثم عرضت لكتاب المهندس وائل عثمان ، أحد زعماء الاتجاه الديني الشريف « وأشد الناس عداوة للتيار الذي أنتمي إليه » ، لأوضح وأنا أحلل كلماته الصادقة ، كيف عمل السادات على تكوين جماعات دينية عنيفة بغرض القضاء على الشيوعيين « كانت تلك هي المرة الأولى التي يعلن فيها ذلك الأمر » ، وكيف توصل الكاتب الشريف إلى ما يكمن وراء الستار قائلًا : « أدركنا أن هناك مَن يعمل على ضرب الشيوعيين وشباب الإسلام « الجماعة الشريفة الدينية في الجامعة التي كان ينتمي

إليها » ، في نفس الوقت ، وأن التعليمات كانت تصدر لهذه المجموعة « التي ترفع شعارات دينية وتستخدم العنف والمطاوي ضد خصوم السادات اليساريين » ، من مكتب أمين التنظيم في الاتحاد الاشتراكي محمد عثمان إسماعيل .

ثم قلت : إن حرب ٧٣ هدأتنا ، لكن بعدها المشاكل لم تحل ، تزايدت ، الزواج أصبح مستحيلًا ، التعليم لا يجلب شيئًا من همه ، فئات طفيلية تكون ثروات خيالية يظهرون للشباب أن الفهلوة أجدى ، ومن يرفض الفهلوة فلينعزل ، وليغتظ ، وليتجه به غضبه إلى العنف .

وقلت مدينًا السادات ، وخلقه أو 'ختلاقه ، لجماعات الإرهاب المتخفية في مسوح الدين ، على حساب جماعات دينية شريفة وطنية تعارضه ، الأمر الذي هيأ الأرض لمعارضيه المتسمين بالعنف ، والذين كان خطابهم ، نفس خطاب الجماعات المصطنعة ، فلم يفطن لهم بينهم ، قلت « فوجئنا بهم ، وقد طالت لحاهم ، يشبهون الشيوعيين « كل من يعارض السادات شيوعي وعميل في نظره » ، ويقولون نفس كلامهم « يعارضون الفقر ، والفساد ، والفشل الإداري المعهود في حل مشاكل الناس ، والاستسلام للغرب بدعوى العقل والعقلانية ، والصلح مع إسرائيل » فقال السادات : « إن الشيوعيين تخفوا داخلهم « وكان هذا أغرب تحليل للأمر تفتقت عنه عبقرية السادات ورددته جوقته من محترفي الردح الإعلامي ، ألم نقل إن السادات لم يفهم » وتساءل البعض كيف اجتمع الشامي والمغربي ؟

وقلت عن تلك الجماعات : قيل لهم أنتم المخلِّصون ، واقتنعوا ، ولأنهم كانوا يلبسون ملابس فضفاضة ، كانوا يُستفزون من كل من يرى أنهم ليسوا في حجم ثيابهم .. أنهم لا يملؤونها ولأنهم كانوا يتكلمون بالقرآن والحديث وابن قتيبة وابن حزم وابن كثير ، وأحاديث آخر الزمان وغيرها ، لم يستطع أحد أن يقف أمامهم ،

واتجهوا للعنف وهم يحملون غيظًا من المشاكل الاجتماعية وكلهم من أبناء الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة التي جعلتها الأسعار تندفع منحدرة إلى قاع المجتمع » .

« ليس الأمر شيوعيين أو فتنة طائفية » .

« الأمر غضب شريف للشباب ، يشوه ويقمع فينحرف إلى ساحات العنف » .

وقلت :

«لن يكون العنف فوق المنصة آخر الخطوات أو آخر المحطات لقطار الضياع ، إلا إذا استطعنا أن نوقف القطار نهائيًا ، وهذا يستلزم منا الكثير ، إلى جانب القبض على البعض ، والمحاكمة ، والجزاء ».

كان هذا بعض ما كتبته في المقال ، ودم السادات لم يجف بعد !!

وبدون ادعاء زائف للتواضع ، انقلبت المائدة !! « كما جاء في وصف الأستاذ لويس جريس لما كتبته » وتحول الأمر من مجرد مهاجمة التيارات الدينية العنيفة إلى محاكمة « بالرأي » للمسئولين عن أزمة الشباب ، وعن زرع بذرة العنف « وعلى رأسهم السادات بالطبع » وكان ذلك ما قصدت إليه تمامًا .

أيضًا ، وبدون ادعاء زائف للتواضع ، أصبح قاموس المقال « العنف ، غياب الحلم ، حادثة المنصة ، عزلة الشباب ، الغضب الشريف ، وغيرها .... » مدارًا « بل وعناوين » لكتب كبيرة فيما بعد ، كتبها كبار للغاية [1] .

وبرغم أن صباح الخير « معذورة » لم تستطع وقتها ــ أن تفسح لي مساحات أخرى لاستكمال تلك البداية الثانية ، بعد البداية الحقيقية الموؤدة « أيضًا أعذرها في

(١) وإن كان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد قصر وصف الغضب على ذلك الخريف الذي اغتيل فيه السادات ، ولم يكن قد مضت على بدايته غير خمسة عشر يومًا !! أقصد الخريف .

ذلك » إلا أن ما حدث كرد فعل للمقال شجعني على أن أعد كتابي هذا « الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات » ، ومن الجيل تلك الجماعات الدينية التي مارست العنف وكتابًا آخر ، أرجو أن يظهر قريبًا عن « العنف القادم في مصر » !

■ ■ ■

في الفترة من أكتوبر ١٩٨١ وحتى منتصف عام ١٩٨٤ ، كان العنف قد هدأ تمامًا ، واختفت الفتنة الطائفية كأن لم تكن ، برغم هذا لم أتصور للحظة واحدة أن العنف لن يندلع مرة أخرى ، وبصورة أخرى ، ذلك أن أسبابه كانت ما تزال سارية وبالطبع لم تكن الصحافة مستعدة لفتح السيرة « مرة أخرى » ، حتى بدأت شواهد جديدة لعنف آت تظهر حول المساجد ، أو الزوايا في مناطق الفقراء العشوائية في الفيوم ، ومدن أخرى من مدن الصعيد ، حتى وقد بدأت الجرائم ضد ممتلكات الأقباط وفي كنائسهم في الوجهين البحري والقبلي والقاهرة ، تلك الجرائم التي تقوم على مبدأ « الاستحلال » ، ولا يكون الهدف منها كما عودنا أبطالها ، إلا تمويل موجة عنف قادمة ، برغم كل هذا لم تكن هناك أذن تريد أن تسمع شيئًا عن العنف ، « بدأت الشواهد الجديدة في العام ١٩٨٤ » ، إلى أن صحت الآذان جميعًا على صوت انفجاراته المدوية ، ومنظر نزيفه الهادر .

حاولت الكتابة ولم أستطع النشر .

إلى أن أنقذني صديقي الشاعر الجميل جمال بخيت ، أنقذ هواجسي التي لا تريد أن تتركني ، والتي كان من الواضح أنني لن أتخلص من تأثيرها المدمو إلا إذا كتبت عن الموضوع .

أنقذني جمال بخيت وأنقذ هواجسي ، وأنقذني منها .

كان ذلك في فبراير ١٩٨٥ .

في ذلك الوقت اندلعت سلسلة من جرائم الاغتصاب ، « فتاة المعادي وخمس حالات أخرى » وكتب جمال بخيت عن السلسة الآثمة متهمًا الكبت الجنسي الذي يعاني منه الشباب ، الشباب الذي أطاحت الظروف الاقتصادية ـ بعيدًا عنه ـ بسن الزواج .

قال جمال بخيت في نهاية مقاله « بصباح الخير » :

احذروا الظن بي ....

أنا لا أخرف .

« وإنني على استعداد لأن أترك هذا الموضوع إلى الأبد ، وعندي من الحماسة ما يكفي لحملة صحفية تتناول محاكمة الكبت ، وإثارة هذا الموضوع مع رجال الدين والتربية والأطباء والمسؤولين عن الإسكان » .

كان من الواضح أن جمال بخيت يتوقع أن تفتح عليه فرقة « الردح الإعلامي » الجاهزة أبدًا ، نيران أبواقها ، لتتهمه هو ، وتغلوش على الموضوع ، كان يتوقع ذلك وإلا لما قال إنه على استعداد لأن يترك هذا الموضوع إلى الأبد .

أخذتها فرصة وقررت أن أكتب مرة ثالثة عن العنف ، وأيضًا في صباح الخير ، وقلت في المقال :

« تعرض جمال بخيت لقضية خطيرة، في مقاله « حاكموا الكبت أولًا » ، هي قضية الكبت الجنسي الذي يعاني منه الشباب والذي يكمن وراء حوادث الاختطاف والاغتصاب، وأشار ككاتب واعٍ إلى الأزمة الاقتصادية بأصبع الاتهام ـ تلك الأزمة التي تهددنا بأن « جيلًا كاملًا لم يوفر له المجتمع فرصة ممارسة الجنس بالطريقة المشروعة التي حددها له الدين ، وتحددها القيم عن طريق الزواج ، فلا

عمل مناسب ، ولا شقة تسمح له ببدء حياة زوجية شريفة في سن مناسبة » .

وقلت : إن جمال بخيت « على حق فيما وصل إليه ، ولكن ، هل المشكلة كبت جنسي فقط .

وقلت :

إن هناك كبتًا « أكبر بكثير من أن يكون جنسيًا فقط » يعبر عن نفسه بالرغبة في العنف ، وإن اتخذ شكل الممارسة الجنسية ، وهذا الكبت ليس جنسيًا ؛ لأنه لن يحلل ظاهرة العنف تحليلًا كاملًا » .

ذلك أنني كنت قد لاحظت شيئًا وراء جرائم الاغتصاب ، هو نفس الشيء. الكامن في تغيير نوعية الجرائم العادية ، فقلت :

أولًا : تعالوا نفرق بين ممارسة الجنس اللامشروع ، وبين تلك الطقوس المرعبة لممارسته بكل هذا العنف ، « قهر الخطيب « فهم كانوا يختطفون البنت وخطيبها » وإيلام الضحية جسديًا ونفسيًا إلى أبشع حد » .

إن ما يخيفني حقًا في الصورة هو هذا العنف البشع .

في حالة الفيوم مثلًا ، طلبوا من الضحية ، بعد أن نالوا ما يبتغون ، أن تأتي في اليوم التالي من أجل المزيد ، لم يكن الدافع إذن تصريف حالة وقتية ، « المكبوت جنسيًا يصرف كبته محاذرًا أن تتعرف عليه الضحية ، لكننا في مثل هذه الحالة أمام أفراد قرروا إذلال من اغتصبوها وإذلال خطيبها أثناء الاغتصاب وبعده، إن هذا بوضوح شيئًا أكبر من الكبت الجنسي الذي كان قد استراح بعد ممارستهم الآثمة » .

ثانيًا : تعالوا نثبت أن هناك كبتًا أعم ما وراء حوادث الاغتصاب ، والخطف ، لماذا ؟ حتى لا تنفصل تلك الجرائم عن صور العنف الأخرى ، العنف السياسي ، زيادة عدد الطعنات في الجرائم العادية ، سبعون طعنة !! (راجعوا صفحات

الحوادث) سرقة شقة بعد قتل خادم ضعيفة لا تستطيع المقاومة ولا تستطيع أن تدل على الفاعلين؛ لأنها لم تكن قد رأتهم من قبل ، قتل الأمهات بعدد كبير من الطعنات ، قتل عمة أو خالة ، وطفلتين كبيرتهما في الثالثة والصغرى رضيع ، انتشار أقراص الهلوسة إلى حد يدعو الباحثين إلى الهلوسة ، و.... » .

« لا رابط بين كل هذه الجرائم غير العنف ، عنف على الآخرين وعنف على النفس ، عدوانية ضد الآخرين وعدوانية ضد النفس » .

« هناك عنف ... عنف .... عنف ، والاغتصاب أحد صوره « وما لا ينشر أكثر مما ينشر بالطبع » .

ثالثًا : هل الفقر وحده وراء جرائم الاغتصاب العنيف وأشكال العنف الأخرى في الجرائم ؟ الفقر دافع خطير لا نستطيع تجاهله كما وضح جمال بخيت ولكن أليس في ممارسي الاغتصاب « حرفي » يكسب الكثير ، ولا يعرف كيف يحسن إنفاق الكثير الذي يكسبه ؟ أليس فيهم « ممارسي الاغتصاب » مثلما في الجرائم العنيفة واحد من أثرياء الطبقة الطفيلية ، أو أبنائها ؟ إن الأمر احتاج إلى « عربة » ونقود ، وغطاء بالنفوذ في إحدى الجرائم أو بعضها ، المشكلة أن فيهم من لديهم المال والامكانيات والنفوذ أيضًا ، إذن ليس الفقر وحده وراء هذه الجرائم العنيفة » .

« إن ما وراء هذه الجرائم هي الأزمة الاقتصادية ، تلك الأزمة التي تعبر عن نفسها ، بأن هناك « فقر بلا داع وغنى بلا أساس » .

المتعلمون أغلبهم فقراء وكانوا يحلمون بحياة أخرى يوفرها لهم علمهم . أي خيبة أمل ؟ وبعضهم خدم تكنوقراطي لأصحاب الثراء من أمثال « شيال الميناء »[1] أي

(١) شيال الميناء ، كان مليونيرًا ، بدأ شيالاً ، ثم وصل إلى الدرجة التي جعلت الرئيس السادات يقول له : «خل بالك من الإسكندرية» .

مهانة ؟!! والبعض صار مضطرًا للخدمة بعلمه في بلاد أخرى ، تمتص أعمارهم ، ليعودوا ويفاجؤوا بأن التجار والسماسرة وأصحاب العقارات « الناطحة للبشر » يمتصون بعد ما أضاعوا أعمارهم من أجله ، أي غيظ ! هؤلاء ألا تمكن فيهم بذرة عنف .

ثم « البلطجية » صاروا أغنياء ، قلب ميت ، وتجارة في الممنوع، وتحايل جريء على القانون أو بالقانون ، ثم ثروات مفاجئة يتم الإعلان عنها تليفزيونيًا!! ، إذا تكلم الناس فإنه الحقد ، وإذا تكلم المدعي الاشتراكي ، فنحن نخيف رؤوس الأموال ، وإذا تكلم المثقفون ، فهم يتاجرون بآلام الشعب الكادح!! ويشوهون الحقائق ويبلبلون ، ليعرقلوا مسيرة الإصلاح ، وإذا فاض الكيل ، فهي انتفاضة حرامية .

الذي باع نفسه بسهولة ، ليحصل على ثروة لا تستطيع شراء نفسه مرة أخرى ، ألا يجد لذة في تعذيب الآخرين ، من يستهن بنفسه يستهن بالغير ، وابنه ، ابنه الذي حصل على كل شيء ، بينما الجميع من حوله يتهامسون بحقارة أبيه ، ماذا يحوي داخله غير البذرة العنيفة ؟

والحرفيون « إنني لست ضد ثرائهم » هؤلاء بدلًا من أن نفيدهم بـ« التعاونيات». ونستفيد بهم نتركهم للمخدرات ، التي لا تكفي فيضاف إليها الخمر ، فلا يكفيان فيضاف إليهما « الماكس فورت » ، ونحتقرهم ونلعن ثراءهم ، كأن ذنبهم أن المتعلمين فقراء بعلمهم ، وأن هناك من المتعلمين من يعلمهم كيفية التهرب من الضرائب صباحًا ، ويرص لهم « الحمص الملهلب » ، في الليل طمعًا في « نَفَسْ » ينسيه همه ، ينسيه أنه يضطر للعمل في خدمة الجهل ، وكل ذلك ليحل المتعلم ، مشكلته . فرديًا، بعد أن نتفنا ريش الحل الجماعي ، وضحكنا إذا رأيناه عاريًا بيننا بلا ريش .

«ليس الفقر وحده متهمًا ، لكن الثراء بلا أساس متهم ، أي أن الاتهام يوجه

للخلل ، للاتوازن ، وفي الخلل تترعرع بذرة غضب يعبر عن نفسه بالعنف» .

هناك عنف ، عنف ... عنف» .

عنف رغم وضوحه ، نراه متخفيًا في صورة جرائم فردية .

و«قلت :

لا تعودوا إلى الكلام عن فئة ضالة ، وأفراد منحرفين .... و..و.. وتدفنوا الرؤوس في الرمال» .

«هل سيظل العنف معبرًا عن نفسه بالجرائم الفردية ؟! لا أظن..».

وقلت أيضًا :

لقد كتبت في هذه المجلة « صباح الخير » [1] بعد حادثة المنصة ما ألخصه في جمل قصيرة الآن .

قلت : « إن ضياع الجيل هو سبب العنف ، وليس العنف هو ضياع الجيل » .

وقلت : « إن علينا بالمبادرة بحل المشكلة الاقتصادية « فقر بلا داع وغنى بلا أساس » وحل مشكلة التعبير الديمقراطي التي تجنبنا اليأس الذي سيروعنا بالعنف بين الحين والحين » .

وقلت : « إن علينا ألا ننخدع بالقشور ، فلا فتنة طائفية هناك ، ولا تيارات خارجية تتحكم في شبابنا ، ولكنه الغضب الشريف » .

وأي جديد جد ؟

أقولها بصراحة والأرزاق على الله ــ يوجد من يحاولون دائمًا عرقلة مسيرة الإصلاح عندما حانت الفرصة لمشاركة الشباب في الإصلاح ، كان هناك البعض

(١) كنت أشير إلى مقالي في ١٠ ديسمبر ١٩٨١ ، والتي جاء ذكرها من قبل في هذه المقدمة .

الذين يحاولون إقناع البلد بقانون الانتخابات « الجديد » ، هذا القانون الذي جعل الشباب يحجم عن المشاركة متصورًا (بل مقتنعًا) أن لا فائدة ، ثم كانت هناك شبهة التزوير ، وكان هناك من يجعجعون بالجرعة الزائدة من الديمقراطية التي لن تحتملها معدة الشعب الطفل!! ، وكأن الديمقراطية ـ حقنًا ـ من الممكن أن تسحب منا بسهولة ، وكان هناك من يتغاضون عن تعذيب المسجونين السياسيين الذي أثبته القضاء ، وكان هناك أيضًا ونحن نؤكد قدرتنا الذاتية وانتماءنا العربي ، وعدم انحيازنا من لا يتوانون يومًا عن تأكيد الحقيقة الوهمية ، بأن (٩٩٪) من أوراق اللعبة في يد أمريكا ، ومن أسموا محاولة الإصلاح الاقتصادي الأخيرة التي تتحسس خطاها بأنها عودة للانغلاق الأسود ، صائحين بأن القرش الأبيض لا يعمل في الانغلاق الأسود .

وقلت في نهاية المقال :

حكموا العقل ، وإلا سيبقى العنف عدوًا مختفيًا تحت الرماد ، أو عدوًا رغم وضوحه ، يتخفى في صورة جرائم فردية .

■ ■ ■

وبعد :

فلعل القارئ قد لاحظ « أو هو لابد فعل » أن المقالة الأخيرة ، قد حذرت ولم يكن على السطح وقتها إلا بوادر شاردة تومئ إلى أن العنف لن يبقى متخفيًا في صورة جرائم فردية « وهذا ما حدث » وحذرت من عنف سيصنعه الفقراء ولم تمض غير سنة بالضبط ـ من فبراير ١٩٨٥ إلى فبراير ١٩٨٦ ـ حتى اندلعت أحداث الأمن المركزي « وكانت احتجاجًا عنيفًا للرعاع ، إنني لا أقصد هنا بالطبع أن أهين جنود الأمن المركزي ، ولكنني أقصد إدانة الحريصين على انتقائهم ممن لا يعرفون

شيئًا على الإطلاق ، ليزيدوا من تجهيلهم بدعاية قادتهم المغرضة ، عامدين إلى إذلالهم لإطلاق الوحشية داخلهم ، ثم بعد ذلك يقودونهم في حملات بربرية لاقتحام بيوت الناس في الصعيد ، مشيرين عليهم، وسامحين لهم باعتبار ما يجدونه من ممتلكات الناس غنيمة يحل لهم أن يحصلوا عليها « ولو لم يكن كل ما أقوله صحيحًا ، لما عمدت الحكومة إلى إخفاء أوراق القضية واعتبارها نسيًا منسيًا ، وكأن شيئًا لم يحدث وكأن ممتلكات الشعب لم تهدد وتحرق ، وكأن فوضى لم تعم ، وترويعًا لم يحدث بنفس الطريقة التي تعدها الحكومة لخصومها ، لقد كفت الحكومة على الأمر « ماجورًا » ولم تنتبه ، إلى أن الفارين منهم ، فروا بأدوات وكيماويات الإحراق ، وأن هذه الكيماويات ظهرت بعد ذلك في أيدي أنصار العنف الديني في موجة حرق نوادي الفيديو . لقد اتحد الهاربون مع الهاربين من أعضاء الجماعات ، واختفوا جميعًا في المحاجر ، وعادوا لنا ليروعونا بمواد حارقة، تتعجب لماذا وضد من كانت تمتلكها الدولة ؟! » .

أيضًا ، القارئ لابد أنه لاحظ أن المقالة حذرت من تصاعد العنف اجتماعيًا وسط طوائف المتعلمين وشرائحهم الطبقية « وأننا شاهدنا بعدها ، المدرس ، والمحامي ، والطبيب ، والتاجر بين صفوف جماعات لم تكن تضم إلا الطلبة وصغار الحرفيين » .

ثالثًا : لابد وأن القارئ قد لاحظ تحذير المقالة من البلطجية المستشرية ، ولعله الآن يذكر أحداث جمهورية إمبابة الإسلامية التي قادها طبال ، صار بلطجيًا ، ثم داعية إسلاميًا يجهل كل شيء عن الإسلام ، ويعرف كل شيء عن العنف ، تلك الجمهورية التي قامت الحكومة بحملة عسكرية من قوات الأمن وقوات مقاومة الإرهاب للقضاء عليها ، وكان على الحملة أولًا أن تزيح أكوام القمامة لتصل إلى حكام جمهورية إمبابة « التي لا تشبه جمهورية زفتى إلا في المعنى المتداول للإسم » ولعل القارئ يذكر أيضًا احتياج الشعب والحكومة مؤخرًا إلى إصدار قانون ضد

البلطجة المستشرية من مجلس الشعب .

رابعًا : وأظن أن القارئ قد لاحظ ، إنه لم تمض سنوات حتى عرفنا أن من أبناء الطبقة الجديدة من يمولون العنف الديني « رغبة في التطهر بالدين ، ورغبة أشد في العنف » دون معرفة آبائهم ، ثم عرفنا أن آباءهم يمولون العنف الديني دون معرفة أبنائهم « ذلك أن العنف الديني السياسي ، يشل يد الحكومة ، ويشغل وزارة داخليتها ، وأن استشراءه خير وسيلة لقمع جميع المواطنين ، وتأجيل الكلام عن أي إصلاح ديمقراطي ، يفضح فسادهم ، واستغلالهم لنفوذ البعض ، ويكشف عملياتهم التي لا تمت إلى نزاهة رجال الأعمال بصلة ، وتهربهم الضريبي ، وعدوانهم الاستهلاكي الفج على فرص الاستثمار ، تاركين المغامرة ـ سواء تجارية أو صناعية ـ للأموال التي يقترضونها من البنوك ـ عارفين أن الهرب بعد تهريب الأموال ممكن ، غير عابئين بالضحية المستنزفة ، الدخل القومي المصري ، فضلًا عن أن الإرهاب يقوي شوكة الأمريكيين « لاحظ أن أمريكا بسبل غير مباشرة تدعمه ، وتدعم رموزه وتفسح لها مكانًا عندها سواء كانوا من مصر أو من الجزائر ولا تغرنك المحاكمات الصورية التي لا تبدأ إلا بعد عمليات إرهابية تمس اللحم والدم الأمريكي الغاليين » ومطالبتهم بمزيد من الخصخصة ، إذ أن الإدارة في مصر تثبت بفشلها الإداري في مكافحة الإرهاب ، إمكانية فشلها في إدارة ممتلكات عامة نيابة عن الشعب « وها نحن ذا قد وصلنا إلى الخصخصة ، بعد اكتمال المصمصة » .

والغريب أن بعض المثقفين ينادون الآن بضرورة تأجيل الإصلاح الديمقراطي ، بحجة أن المستفيد الوحيد من هذا الإصلاح هم الجماعات التي تستخدم الدين في ساحات العنف ، ذلك أن المثقفين يخافون على الحرية الموجودة التي ستقمعها هذه الجماعات .

أيضًا فإن الحكومة « مبسوطة » فقد وضعت الجميع في خندق ، وهي تلوح دائمًا بأنها لن تحمل أي « تجاوز » « الحكومة تسمي دائمًا المعارضة الجادة تجاوزًا » بينما هي تحارب الإرهاب ، والحكومة مبسوطة أيضًا لأن قانون الطوارئ الذي تزعم أنه لا يستخدم ضد أصحاب الآراء ، والذي استخدمته فعليًا ضد أصحاب الرأي حمدين صباحي ، وكمال خليل ، وعز الدين نجيب ، وكلهم معارضون لا يعرف أيهم استخدام السلاح ، الحكومة مبسوطة لأن قانون الطوارئ هذا يُمَدُّ العمل به أتوماتيكيًا ، بحجة طال انتظارنا عليها ، هي مقاومتها للإرهاب ، كل ذلك وهي تعرف أن الفساد الاستفزازي والفشل الإداري وازدياد إعداد الواقعين الرازحين تحت « بلدوزر » البطالة ، عوامل كبيرة ـ تعني فشلها ـ وتغذي مرجل الإرهاب ، بل وتعلم الحكومة أيضًا أن إرهاب « الداخلية » أكبر مفجر للإرهاب الأهلي .

ولعل القارئ قد لاحظ « وهو لابد فعل » أن ما حذرت منه المقالة ، هو ما نعانيه الآن وكأننا جميعًا نؤذن في مالطة !!

■ ■ ■

لكن ، الآن ... ومن حق القارئ الذي لاحظ كل ذلك ، أن يلاحظ ما فات على وقتها ، فمن حقه أن أعترف له ، بأنه لم يدر بخلدي أبدًا ، أن تسعى الحكومة وبتمويل أمريكي سعودي ، إلى تسفير أعضاء الجماعات الإسلامية العنيفة إلى أفغانستان ، بحجة مقاومة المد الشيوعي « المأزوم وقتها ، والمعرض للانهيار » ، ليتم تدريبهم على أعلى مستوى في معسكرات تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وليتحول التيار الوطني لهذه الجماعات « حتى وإن كان يمارس عنفًا جموحًا تسريبيًا شديد البشاعة » إلى تيار أممي أعمى ، تتلاعب به جهات التمويل الخارجية المريبة « ومنها إسرائيل بطريق غير مباشرة » ، تحت شعار المساندة الأممية ،

ليعودوا فوق بئر تمويلي معطاء ، يروعوننا كما لم نروع من قبل ، ولنجد أنفسنا في مواجهة عمليات هي الفوضى وإسالة الدماء ، كل الدماء ، تؤدي بتقنيات جديدة ، « الغريب أيضًا أن الحكومة التي أرسلتهم في بعثة تعليمية تدريبية تمويلية ، لم تحتفظ بقوائم تضم أسماءهم ، إذ تركت أمر التنفيذ والقوائم سرًا لا يمتلكه إلا شيخهم عمر عبد الرحمن الذي لجأت إليه الداخلية ليعطيها مددًا من شبابنا تعطيه للمخابرات الأمريكية لمحاربة الشيوعية ، « مرة أخرى التي كانت في سبيلها إلى الانهيار » .

***

والآن ، من حق القارئ عليَّ أن يتساءل : ما كل هذه المقدمة الطويلة عن العنف ـ بكل صُوَرِه ـ لكتاب أكرسه عن حركة الطلبة ٦٨ ـ ١٩٧٧ ، ولماذا كل هذه الكتابة عن « السادات » في جزء أختص به مواجهة جيلنا لجمال عبد الناصر ٦٨ ـ ٧٠ ؟

الحقيقة أن الدهشة كانت دهشتي أنا قبل أن تكون دهشة القارئ بعد أن قطعت شوطًا في المقدمة ، وعدت لأراجع ما كتبت .

سألت نفسي نفس السؤالين ، لكنني سرعان ما وجدت إجابة جعلتني أستمر فيما بدأته .

الإجابة ، كانت : أننا خرجنا ضد جمال عبد الناصر في أمر واحد ، خرجنا ضده من أجل الديمقراطية ، وكان تخوفنا ، أن انتكاسة كانتكاسة ٦٧ ، من الممكن أن تحدث إذا ما ظلت الديمقراطية غائبة ، إذا ما احتمى بغيابها الانتهازيون ، الذين يصورون كل معارضة على أنها تآمر لقلب نظام الحكم ، وتآمر على جمال عبد الناصر شخصيًا ، وخلف الستار يفعلون ما يفعلون ، وما ندفع نحن ثمنه كلما صحونا على مصيبة من مصائبهم ، ولما لم يقبل عبد الناصر خروجنا عليه ، وضربنا ، وأرهبنا ، وشوهنا ،

وحاول احتواءنا ، ونجح في احتواء البعض ، ولم يحدث التغيير ، وسكتنا لأن قواتنا المسلحة كانت تقوم بالعبور بين ليلة وأخرى وتروع اليهود على الضفة الأخرى ، في حرب استنزاف مجيدة، الأمر الذي جعلنا نؤجل كل الأحلام ليتم الحلم الأجمل .

ولأن جمال عبد الناصر فعل هذا وسكتنا ، صحونا على مصيبة جديدة .

وكانت المصيبة تراجع السادات عن الخط الثوري الذي دبر له تدبيرًا محكمًا ، وصنع له من رجاله المستفيدين ، أبواقًا صحفية ، وأقلامًا مغرضة ، ورجالًا للأعمال لا يعرفون غير البلطجية والسرقة ، والعدوانية على قوت الشعب الضروري، وبلطجية تولوا مناصب الاتحاد الاشتراكي العربي .

لقد سلمنا جمال عبد الناصر لأنور السادات .

سلمنا له صيدًا سهلًا .

أما تنظيمات جمال عبد الناصر ، التي تصورنا إنها ستدافع عن الشعب ، فقد ظهرت مما فعله بها ، نمورًا من ورق ، أسدًا « مخابراتيًا » على ، وأمام السادات نعامة .

ولقد استخدم السادات كل كلمات ، جمال عبد الناصر ، ليمشي في عكس الاتجاه ، فالاشتراكية التي ليست ماركسية كافرة ملحدة ، استخدمها هو أيضًا لضرب الأنصار ، والتراجع عن الاشتراكية .

بل إن التسمية الخاطئة لصراعنا الأمني القومي مع إسرائيل والتي سماها جمال عبد الناصر « قضية فلسطين » ، لكي تحتمل التأجيل إلى وقت يختاره هو ، استخدمها السادات « قضية فلسطين » لكي يخلع يده منها ، تحت شعار « الفلسطينيون » يتكلمون عن أنفسهم ، وكان قوله حقًا أريد به باطل ، فالقضية ليست قضية الفلسطينيين ، القضية قضية الأمن القومي المهدد برغبات سيطرة الرأسمالية العالمية على مقدرات المنطقة ، والحلم الصهيوني الذي يخطط لابتلاع الأرض العربية كلها بعد أن يحقق

شعاره الذي لم يتنازل عنه « برغم السلام » وهو أن « أرض إسرائيل الكبرى من النيل للفرات » ، وأن الشرق أوسطية سوف تتولى بعد ذلك السيطرة على الإنسان العربي في كل مكان بعد السيطرة على العرب « المهرولين »، كل العرب .

والديمقراطية ، اضطر لها السادات ثم جعل لها أنيابًا .

و.... و ..... و .....

وكان أن ضرب السادات بنفس الطريقة التي مارسها عبد الناصر « ولكن لأسباب أخرى » كل معارضيه ، بداية من الضرب بعنف على يد كل حركة ، إلى الترويع ، إلى التشويه للمعارضين ، إلى محاولة الاحتواء ، بنفس التقنية الناصرية .

لو لم يفعل بنا جمال عبد الناصر ما فعله ، لما استطاع السادات أن يلهو بنا ، وأن يجعلنا أوراق كوتشينته التي يقامر بها لمصلحته الشخصية ، في مواقع ذيلية تابعة للأمريكان .

ولقد أخطأ جيلنا ، حين أصابه اليأس ، وجمدته اللامبالاة ، وشتت قواه بعثرته في بلاد النفط ، والتي رآها « شحططة إجبارية » بعد أن عمد السادات إلى إفقار الطبقة الوسطى في الأساس ، ليشغلها ولتستطيع طبقته أن تأكل الفقراء والطبقة الوسطى معًا .

أخطأنا ...

وأخطأ بعضنا حين تصور أن العنف الفوضوي هو بديل العمل الشعبي المنظم القادر على الضغط باستمرار لتحقيق أمانيه .

صدقًا وحقًا ، كان العنف هو البديل ، ولقد فرح الجيل بهذا العنف ـ بادئ الأمر ـ لكن سرعان ما تنبه وكان الفضل في تنبهه لتلك الجماعات التي خرجت من صلبه ـ غير المثقف ـ إذ رآها لا تستطيع أن تحدد أعداءها ، ولا تستطيع إلا أن تمارس العنف ضد الجميع ، حتى ضد البسطاء أنفسهم .

إن سلسلة الأخطاء الناصرية ، لا يمكن أن تلد إلا سلسلة من الأخطاء الساداتية والأخطاء الساداتية لا يمكن إلا أن تلد أخطاء الجيل .

لهذا كله كتبت عن السادات والعنف مقدمة كتاب عن مواجهة جيلنا لجمال عبد الناصر ؛ لأن مواجهتنا لجمال عبد الناصر ، لم تكن إلا لتجنب ما سردته المقدمة .

إن المقدمة هذه هي التي تعطي معنى واضحًا لتصاعد فصول الكتاب إلى « غلطة عمر جمال عبد الناصر » .

■ ■ ■

وبعد ....

هل كنت فيما سطرته في هذا الكتاب ، أكتب تاريخًا ، هل كنت أقرأ تاريخًا ، أم كنت أقرأ للتاريخ ؟

الحقيقة ليس الكتاب محاولة للتأريخ .

وليس قراءة في التاريخ .

ولا هو أيضًا ، قراءة للتاريخ .

ليس كتابة تاريخ ؛ لأنه ـ عوضًا عن أن كتابة التاريخ ليست من اهتماماتي ، فإنها أيضًا ـ قبل ذلك ـ ليست من استطاعاتي ، إن كتابة تاريخ فترة حافلة بالتفاصيل كتلك الفترة ، كان يستلزم أشياء كثيرة ـ لم تكن متاحة لي ـ أبسطها ، أن يقول أبطال تلك الحقبة آراءهم ويروون بأنفسهم ـ كلهم ـ ما حدث منهم ولهم ، وهذا ما لم يحدث إلى الآن ، وأيضًا أن تتاح وثائق الفترة ـ في بلد لا تعترف بإتاحة الوثائق ـ كلها ، للدارسين ، لكي يستطيعوا أن يكتبوا للتاريخ .

أما قراءة التاريخ ـ التي أنفيها هي الأخرى ـ عن مجهود الكتاب ـ فإنها فوق هذا

وذلك ، كانت تستلزم أن يكون هذا التاريخ مكتوبًا بواسطة متخصصين في الكتابة التاريخية حتى أستطيع أن أمارس قراءته ، والحقيقة أن هناك ما هو مكتوب لزملاء أعزاء ، رماح أسعد ، وأحمد عبد الله ، وائل عثمان ، أحمد بهاء الدين شعبان ، فضلًا عن كتابين عن الحركة الطلابية أصدرتهما دار بن خلدون في لبنان ، لكن من قال أن هذه الكتب ، إذا ما أضيف إليها كتابي تكفي ، إن الحركة الطلابية لم تولد في فراغ ، ولم تنطلق دون أن يمهد لها آخرون ، ولم تستمر دون استمرار حركة المجتمع التي رأت في حركة الطلاب مترجمًا صادقًا عما يجيش في قلوب أصحاب المصلحة في التغيير ولكي تكتب الحركة ، كان لابد أن ترسم صورة ما حولها وملامح تفصيلية لأصحاب فضل علينا لا نستطيع نكرانه .

ثم إن هذا الكتاب ليس أيضًا قراءة في أحداث أتركها للتاريخ ، لأن الأمر كان يشترط رؤية بانورامية أوسع ، أفضنا من قبل في أنها لم تكن ولن تكون متاحة في القريب العاجل .

لكن وبرغم اللاءات الثلاثة تلك فإن هذا الكتاب حاول مخلصًا إنجاز ما أظنه لا يقل أهمية عن كل ما سبق ، بل وأقول ما هو أكثر أهمية من كل ما سبق ، أقول حاول ، وهو ما استطعته ، أما ما لا أستطيعه فهو إدراك الكمال .

إن رؤية هذا الكتاب الأهم ، كانت محاولة لإعادة تخليق للفترة ، التي جرى منها الزمان ، وفي محاولة إعادة التخليق هذه ، يمكن لغيري كما أمكن لي أن نرى فيها ما لم نره وقتها ، وأن نستشف ما كان غائبًا عن الأذهان .

إن الكتابة عند أرسطو ، وهذا حق ، وسيلة للمعرفة ، وليست وسيلة لنقل المعرفة فقط ، وأظن أن من حق القارئ عليَّ أن أعترف له أنني عرفت بالكتابة لما لم أكن أعرف وأنا أبدأها ، حين تخلقت الفترة أمام عيوني ، بدأت أرى في بانوراميتها

« التي حققتها على قدر جهدي » ما لم أكن قد رأيته من قبل ، بل ومكنتني من أن أخرج من الحدث الذي كنت جزءًا فيه ، ترسًا صغيرًا في آلته الكبيرة الضخمة ، لأعاين عن كثب بقية الأجزاء .

لقد اندهش بعض الأصدقاء عندما أحسوا بأن الكتابة قد غيرت الكثير من أفكاري المسبقة ، وللأصدقاء الأعزاء كنت أقول : لو تصورنا أن الحركة الطلابية كانت سيارة ، وكنا نحن بعض تروسها ، سنتأكد أن حركة السيارة محصلة لحركة تروسها جميعًا ، وهي تختلف في النهاية عن حركة بعض التروس في الاتجاه وأيضًا في القوة ، فالسيارة عندما تتجه إلى اليسار ، لا تعدم داخلها تروسًا تتجه حركتها إلى اليمين لتنقل الحركة في تروس أخرى تتجه إلى اليسار ، ولا تعدم أيضًا تروسًا تتحرك في وضع أفقي ، وفي أوضاع رأسية ، إنك لو سألت كل ترس لحظتها على حدة عن طبيعة حركته واتجاه هذه الحركة لحصلت على إجابات مختلفة ، لكن السيارة ـ حركة الطلبة ـ لا تعرف إلا إجابة واحدة ، إذا سئلت عن طبيعة الحركة وعن اتجاه السير .

بل أحب أن أفضفض للقارئ بأمر آخر شديد الأهمية ، وهو أنني حين بدأت كنت أحب البعض ، وأكره البعض الآخر ، وأؤيد ما جاء به البعض ، وأرفض رفضًا قاطعًا اتجاهات البعض ، « أو لنكن صرحاء أكثر » وتصرفات البعض ، لكنني بالكتابة تصالحت مع نفسي ، مع أخطائها ، ومع أخطاء الآخرين ، لقد كانت لنا أخطاء ، لكن الجميل أن لم تكن للأغلبية الساحقة منا خطايا ، والخطأ وارد لكن الخطيئة عار .

لقد خرجت من الكتابة بمشاعر جديدة دفعتني لاحتضان كل من رأيت من الزملاء في احتفال جيل السبعينيات الذي أقيم في فبراير ١٩٩٧ بحركتهم ،

وجعلتني أكثر شوقًا لاحتضان من لم أتقابل معهم بعد ، من ذا الذي لا يعشق صغارًا « بين السابعة عشرة ـ وبعضهم أقل ، وبين الخامسة والعشرين على الأكثر ، حاولوا حتى ولو شابت محاولتهم بعض الأخطاء ، وبعض التصرفات التي لم نرها لائقة في حينها .

لقد فعل الصغار عجبًا ، وها أنا أصارح القارئ بأنني أحب هؤلاء جميعًا ، ويشرفني بأنني كنت واحدًا منهم في يوم من الأيام ، وأنهم هم من أنالوني شرفًا كان أبعد من أنال بعضه ، كلهم وأنا مصمم على أن أقول كلهم .

■ ■ ■

شيء آخر ، هل هذا الكتاب ضد جمال عبد الناصر ، وأقول للقارئ صادقًا : إن مثلي ممن أحبوا جمال عبد الناصر أكثر من أنفسهم ، وأقل قليلًا من الوطن ، لا يمكن أن يكتب كتابًا ضد عبد الناصر ، بما كان يمثله من استمساك بثوابت الوطن في التحرر والعدل الاجتماعي ، والانتماء العربي الذي هو أملنا الأمني في عالم الوحش الأمريكي الأسطوري العولمي .

الحقيقة أن عبد الناصر عندي ثلاثة رجال :

رجل أحبه .

ورجل أقدره .

ورجل لا أطيقه .

الرجل الذي أحبه هو جمال عبد الناصر نظيف اليد ، الوطني الغيور ، منصف الفقراء والبسطاء في هذا الوطن .

صاحب الكرامة التي هي جزء من كرامة الأرض التي أنبتته ، الرجل الذي

حاول وأخطأ ، ولم تكن في محاولاته أي شبهة لمكسب شخصي ، بالعكس لقد دفع من شبابه ومن صحته ثمنًا لمكاسب أعطاها للبسطاء ، والذي أخطأ ـ دون تعمد ـ ولم يكتسب من وراء أخطاءه ـ كغيره ـ إلا حسرة عاناها ولم يتحملها قلبه في سنى عمره الأخيرة .

والرجل الذي أقدره ، هو عبد الناصر الفكر ، وقد كان حريًا بأن أقول : أنني أحب عبد الناصر رجل الفكر ، لولا غياب الديمقراطية في عصره واعتماده على أنه سوف يحقق ما يريده الناس ـ من فوق ـ دون أن يتكلم الناس عن حقوقهم .

أما الرجل الذي أكرهه في عبد الناصر ولا أطيقه ، فهو عبد الناصر السلطة ، لقد أضاعت سلطة جمال عبد الناصر رجلًا نحبه في جمال عبد الناصر ورجلًا نقدره .

لقد ضرب عبد الناصر أعداءه ، وأنصاره أيضًا الذين جرؤوا على المعارضة لصالح خطه الثوري ، وهكذا عندما ركب السادات الموجة ، استطاع أن يمشي على طريق عبد الناصر « بالأستيكة » ولم يجد من يقف في وجهه من ضحايا عبد الناصر ، أنصار نظامه .

لقد جاء السادات والمجتمع المدني موات .

جاء وغول الخوف بادٍ للعيال تسيل الدماء من زوايا فمه .

لولا غياب الديمقراطية ، لقلت : إن جمال عبد الناصر أحب خلق الله الذين عاصرتهم إلى قلبي « المعصور » .

إن هذا الكتاب ليس أكثر من محاولة لإنصاف حركة طلابية واحدة في سلسلة من الحركات موزعة على قرن كامل ، لاقت من الضرب والترويع والتشويه ومحاولات الاحتواء ما لاقته غيرها .

هذا كتاب يحاول أن يوضح الغرابة في تصرفات سلطة ثورية ، مارست ضد حركة الطلاب نفس ما مارسته السلطة التراجعية في السبعينيات ، بل ومارست الاثنتان « الثورية والرجعية » نفس الأساليب التي مارستها السلطة القمعية قبل الثورة « النقراشي وصدقي » ، والثلاثة مارسوا ما مارسه الاحتلال بسلطته الغاشمة ضد حركة الطلبة عام ١٩٣٥ ، لا لشيء إلا لأن الحركة رفضت أن تحتوي ، الأمر الذي قبله مصطفى كامل لبعض الوقت ليفيق متأخرًا إلى أن حركته لم تخدم ـ أكثر ما خدمته ـ غير الخديوي عباس الثاني ، الذي سرعان ما عمد إلى تقليصها حين بدأت تخدم الشعب مع نمو قدرات محمد فريد .

إن هذا الكتاب محاولة لفهم شيء غامض هو اجتماع المحتلين ، والقمعيين والثوريين ، والتراجعيين على أمر واحد هو ضرب المبادرات الشعبية ، ولعلنا كنا وما زلنا نتوقع هذا الأمر من المتسلطين ، محتلين وقمعيين وتراجعيين ، لكن الدهشة تأتينا من موقف السلطة الثورية ، من خوف جمال عبد الناصر من الديمقراطية وهو الرجل الذي ملك أفئدة المصريين وليس لسانهم فقط .

لقد كنا نقول : إن عبد الناصر كان يريد أن يبني الاشتراكية بدون اشتراكيين وأصبحنا بهذا الكتاب أكثر اقتناعًا ، بأنه كان يريد أن يقود ثورة بدون ثوريين .

وتعالوا لنرى .